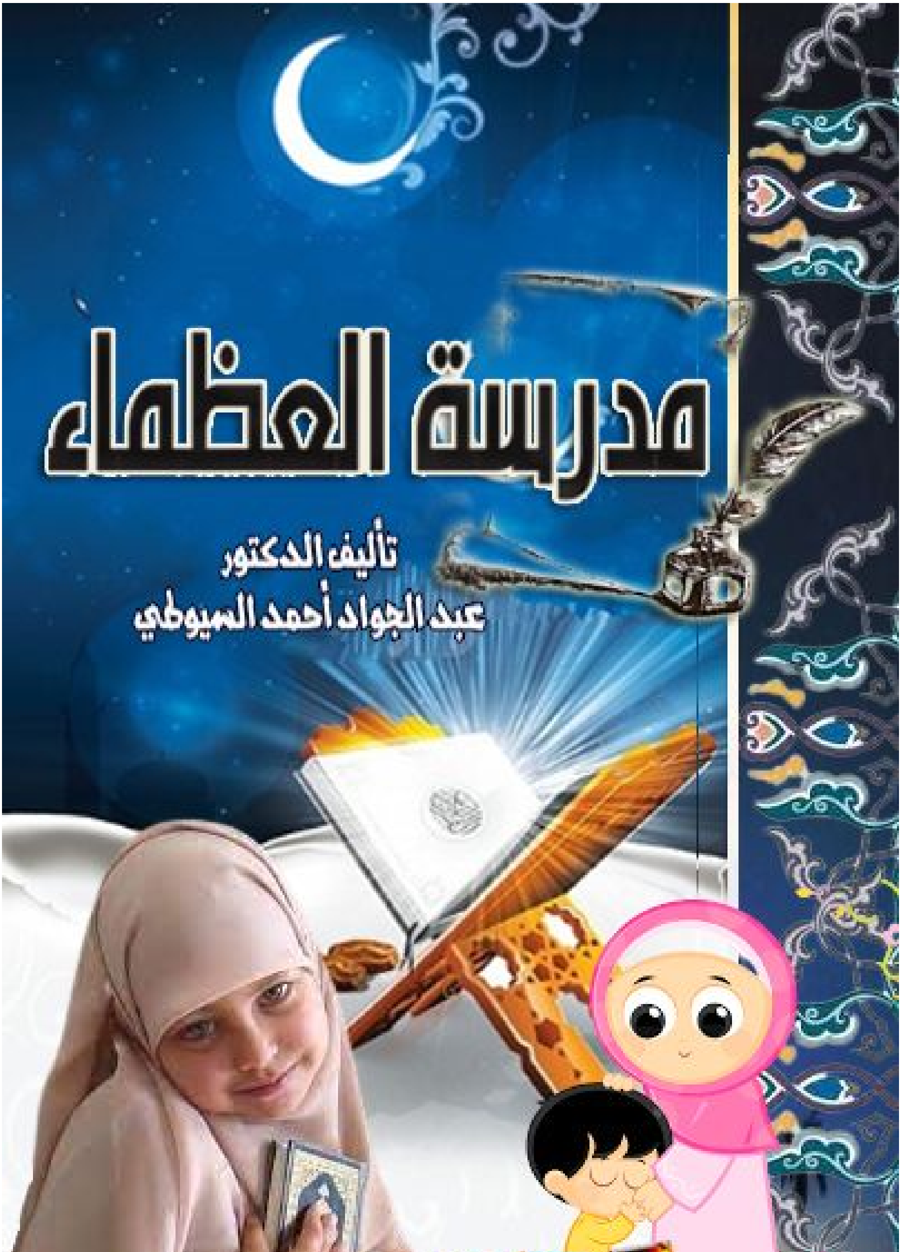
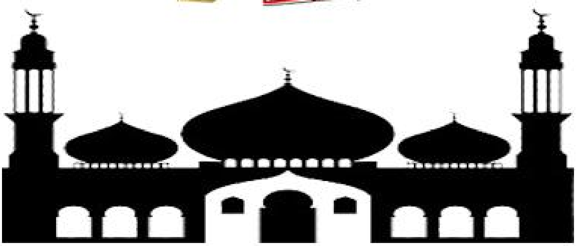

مدرسة العظماء
تأليف الدكتور
عبد الجواد أحمد السيوطي

د. عبد الجواد السيوطي

مدرسة العظماء



بسم الله الرحمن الرحيم



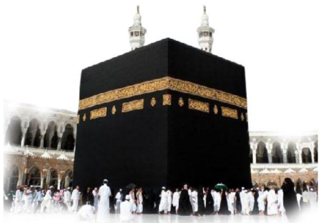
الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي النبي الآمين وبعد..

يسر موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية أن تنشر للدكتور الشيخ عبد الجواد عبد المولى السيوطي هذه الرسالة وغيرها مما اتحفنا بها فضيلته ليستفيد منها المسلمين،وقامت الموسوعة بتصميم غلافة تليق بها ونشرها علي صفحات الموسوعة المختلفة .

وسوف تنشر الموسوعة كل ما يتحفنا به فضيلته تباعًا ونسأل الله القبول والإخلاص أنه ولي ذلك والقادر عليه.

والشيخ-حفظه الله- من مواليد قرية نجع سويلم، ديروط، أسيوط. عام ١٩٧٥م وحاصل على دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن بتقدير ممتاز، ومؤسس قسم القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بقيرغيزيا. وإمام وخطيب بوزارة الأوقاف المصرية .

مع تحيات
موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية



بسم الله الرحمن الرحيم
سلسلة (كيف نبني جيل مسلم)

قبس من القرآن:

قال تعالى: (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) [الفرقان الآية (74)].

وقال جل وعلا: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:6].

من السُّنّة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ (.. وشابٌّ نشأ في عبادة ربه..) رواه البخاري ومسلم.

عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة» متفق عليه.

قالوا:

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قوله: (حافظوا على أبنائكم في الصلاة، وعوّدوهم الخير فإنّ الخير عادة).

قال الشاعر:

إذا طاب أصل المرء طـابت فروعـــه
ومن غلط جاءت يد الشوك بالوردِ
وقد يخبث الفرع الذي طاب أصله
ليظهر صنع الله في العكس والطردِ

مقدمة

إن الحديث عن الأهمية الكبيرة للتربية وعظيم دورها في إعداد مجتمع فاضل وحمايته من الشرور له مكانته العظيمة، كيف لا والتربية الحسنة هي مهمة الجميع ليخرج لنا جيل نطمح إليه يعرف قيمته وكيانه في مجتمعه، ويخدم أمته التي ينتمي إليها، ووطنه الذي يعيش فيه، ويكون آلة بناء لا معول هدم.

فالجميع على مدار التاريخ والعصور – وخصوصا واقعنا وعصرنا – يدرك أهمية التربية الحسنة، وأنها ضرورة مُلِحّة ومطلب لا مناص منه، ولهذا نرى المجتمعات كلها بأسرها – ليس العربية فقط– تنادي وتهتم أشد الاهتمام بالتربية، وتعتني بالحديث عنها، ولعلنا إذا نظرنا إلى المكتبات لوجدنا فيها من الكتب الغربية أكثر مما نجد فيها من المصادر والكتب عن مجتمعات العرب والمسلمين، وإن دلّ هذا فإنه يدل على أن التربية همًّا ومطلباً لجميع المجتمعات بغض النظر عن فلسفتهم التربوية وأولوياتهم أو أديانهم وجنسياتهم.

لذلك ينبغي أن يكون هناك اتِّفاق ومشاركة بين الوالدين في توجيه هذه التربيةِ الوجهةَ الصحيحةَ ولا يترك أحدهما الحمل كله على الآخر. كما يجب على الأبُ أن يُهيئ نفسه ليكون المثل الأعلى لأبنائه؛ ومهمة الأم أن تَغْرس في نفوسِ أبنائها الاحترام الواجب منهم تجاه أبيهم، وكذلك في نفوس بناتها، وبهذا تصل الأسرة بأبنائها لما تطمح إليه.

وقبل أن نُشير إلى أهمية الدور الواقع على عاتق الأب؛ يجب أن نُنَوِّهَ

إلى شيء هام بالنسبة لدور الأم فهو أهم من الأب، لأنها هي التي تُعمِّق في نفوس أبنائها وبناتها وترسِّخ فيهم بذور الشجاعة والشهامة والمروءة، والتمسك بها؛ وخاصَّة في فترة الطفولة المبكرة مِن حياتهم؛ ومن ثم يكبروا وقد تأصَّلت هذه الصفات في نفوسهم.

وكلما اعتاد الأبناء أخلاقا حسنة بقيت فيهم وتوارثها أبناؤهم من بعدهم، فخصال الخير أو الشر عادة يعتادها الأبناء منذ الصِّغر.

قال شوقي:

من لي بتربية النساء فإنها *** في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها *** أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا *** بالري أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الأُلَى *** شغلت مآثرهم مدى الآفاق

وقال صلى الله عليه وسلم « الْخَيْرُ عَادَةٌ وَالشَّرُّ لَجَاجَةٌ وَمَنْ يُرِدِ الله به خيرا يُفَقِّهْه في الدين» ابن ماجة.

نعمة ومسؤولية

قال الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ [الصافات24]
وقال جل وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم:6].
وقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال27].
وعن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت، وهو غاش لرعيته، إلا حرم الله عليه الجنة» متفق عليه.
وقال الإمام ابن القيّم –رحمه الله–: «وكم ممن أشقى ولدَه وفِلذة كبده في الدّنيا والآخرة بإهماله لهُ وترْك تأديبه إياه، وفوَّت عليه حظَّه في الدنيا والآخرة، وإذا اعتبرتَ الفساد في الأولاد رأيتَ عامَّته من قِبَل الآباء».
وقال أيضا –رحمه الله–: «وأكثر الأولاد إنَّما جاء فسادهم من قِبَل الآباء وإهمالهم لهم، وترْك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه، فأضاعوهم صغارًا، فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولم ينفعوا آباءهم كبارًا، كما عاتب بعضُهم ولدَه على العقوق، فقال: يا أبتِ إنَّك عققْتَني صغيرًا، فعققْتُك كبيرًا، وأضعتَني وليدًا، فأضعتُك شيخًا كبيرًا».
إذن يتبين مما سبق أنّ للأولاد حقوقاً عظيمة على آبائهم وأمّهاتهم ينبغي مراعاتها والقيام بها، عرفها من عَرَفها وجهِلها مَن جَهلها، لكن

لابد على الجميع القيام بها، لأنَّ ذلك ممَّا سيُسأل عنه العبد أمام الله سبحانه وتعالى.

وليعلم الجميع أن ابنك سيتعلق برقبتك، ويطلب من الله الانتقام منك، وكأنه يقول: يا رب خذ بحقي منه، فلم يوقظني للصلاة، ولم يأمرني بها، ولم يربّني على الأخلاق الحسنة، ولم يعلمني شعائر الإسلام ولا آدابه وواجباته؛؛..

تخيّل أخي وأختي: أن خصمك يوم القيامة هو ولدك الذي هو من صُلبك، والسبب أنك لم تُعِرْهُ اهتماما في تربيته، فكان وبالاً عليك وحسرة وندامة.

فإنك لمّا أهملته صغيراً، كان من الطبيعي أن يعصِك كبيراً، وإذا لم تعلمه الصلاة طفلاً، شاب على تركها، ومن ثمّ كان حسابك يوم القيامة كبيرا وعسيرا، لماذا؟؟ لقد أتيت له بكل غالٍ ونفيس من المأكل والمشرب والملبس، واشتريت له جوال آخر موديل، وتركت له الأموال في البنوك، العقارات والأراضي وغير ذلك من متاع الدنيا؛؛ يأتيك الرد الصاعق منه حالًا ومقالًا في الدنيا قبل الآخرة، كل هذا لا ينفعني يوم القيامة وها أنا أحاجّك أمام الله، فقد أهملتني وتركت ما ينفعني في هذا اليوم، وتركت مهمتك العظيمة.

أيتها الأسرة المسلمة

أولادكم أمانة فلا تضيعوها، ومسؤولية عظيمة فلا تقصروا فيها، فواجبكم أن تحسنوا رعايتهم وتهتموا بتربيتهم، وعلى الجميع أن يبذل أقصى الجهدِ، وأن يتعاونوا فيما بينهم في إعداد إبائهم أفضل الإعداد لممارسة حياتهم، والقيام بشؤونهم ومستقبلهم وفق المنهج الصحيح الذي يوصلهم إلى بر الأمان في دنياهم وأخراهم.

أيها الآباء والأمهات: إن التربية التي نطمح إليها والتي تجعل الأبناء يكونون سببا في راحتنا في الدنيا وفي دخولنا الجنة في الآخرة ليست بالأمر الهيّن اليسير، إنما هي مهمة شاقة صعبة، وهي مسئولية عظيمة، لكن لابد منها ويجب القيام بها على أكمل وجه– ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: 16]. ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]– لأن أجرها عظيم، وثوابها أعظمُ عند الله جل جلاله.

أيها الآباء والأمهات: متى اهتممنا بأبنائنا وأحسنّا تربيتهم ليكونوا صالحين مصلحين، وجدنا أثر ذلك ونِلنا بسببهم السعادة في الدنيا والآخرة، فالولد الصالح هو أعز ما يملك الإنسان، وخير كنز يَنتفع به

الأبوان في حياتهما وأيضا – وهو الأهمّ – بعد موتهما، فقد قال ﷺ كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ ينتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» رواه مسلم. وروى الإمام أحمد في مسنده : (عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عن أبي هريرة قال: قال النبي –صلى الله عليه وسلم– «إن الرجل لتُرفَع درجته في الجنة فيقول: أنّى لي هذا؟ فيقال: باستغفارِ ولدك لك» صححه الألباني.

فما أعظم حسن التربية للأبناء فلها منفعة عظيمة لأنها ترفع الدرجات في الجنة.

يقول – صلى الله عليه وسلم– تُرفَع درجته في الجنة أي: تُزادُ مَنزِلتُه في الجنَّة بغير عمَل عَمِله، إلَّا بما يُقدِّمه الوالِدانِ لابنهما مِن تربيةٍ صالحة له، وبرٍّ به وإحسانٍ إليه في دنياه، ممَّا يَستوجِبُ على الابن أن يَستغفِرَ لهما بعد موتهما، ومن ثم يرفع الله درجاتهما في الجنة، فما أكرمه من فضل، وما أطْيَبَهُ من رزق، وما أعظمها من نعمة، تلك هي ثمار التربية الصالحة، ونتائجُها الحميدة المباركة، وكذلك البلد الطيب يخرج نباته ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: 58].

والولد لا يكون صالحا إلا بالتربية الصحيحة الحسنة الصالحة، والتعهد الدائم المستمر، والإعداد السليم المنتظم، فالأب إذا لم يقم بتعهد أولاده وإعدادهم وتربيتهم تربية صالحة، فمن الذي سيقوم بذلك؟ ومَن الذي سيعتني بهذه المهمة العظيمة؟ هل يقوم بهذه المهمة الشاقة أباعد الناس أو من لا صلة لهم بأبنائنا؟ أو أن نتركهم –وهم فلذات أكبادنا

وأعز ما نملك- نتركهم تَعصف بها رياح الأفكار المنحرفة المضللة، أو والاتجاهات الزائغة أم نتركهم يتربون على مائدة الفضائيات التي تبث ليل نهار الأخلاق الهدامة؟ أو نتركهم عُرضة لوسائل التواصل الاجتماعي وما فيها من موبقات وألعاب تقتل النخوة وتجرئهم على المنكرات؟ فينشأ منهم جيل فاسد لا يراعى لله ولا لشرعه حرمة، ولا يراعي حرمات الناس ولا حقوقهم، ينشأ جيل متهور لا يعرف معروفا ولا يُنكر منكرا، لماذا؟؟ لأنه جيل أُهملت تربيته، وتُرك تحتضنه الشوارع وتتبناه دور الفساد والإفساد، تُرك ليتلقفه المفسدون، وترعاه أيدي الشر والفساد.. فكيف نريد نفع أولادنا وصلاحهم، ونحن أهملناهم وأغلقنا في وجوههم طريق الصلاح وسبيل الهداية والنجاح، وكنا سببا مباشرا أو غير مباشر لإيرادهم سبيل الفساد حتى ضلوا طريق الصلاح والفلاح، ولعظيم شأن هذه المسؤولية، نرى القرآن يذكر لنا الأنبياء وهم خيرة الخلق وأحبهم إليه، يسألون الله لذرياتهم الصلاح والهداية، فمثلا سيدنا إبراهيم عليه السلام خليل الله وهو يدعو ربه قائلا: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي} [إبراهيم: 40]. كذلك نبي الله زكريا عليه السلام ينادي ربه قائلاً: {رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 38]، وكذلك الصالحون من المؤمنين والأخيار من عباد الله، يقولون في دعائهم كما أخبر الله عنهم: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان:74].

مواقف تربوي نبوي

عن عبد الله بن شدّاد رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس إذ جاءه الحسين فركب عنقه و هو ساجد، فأطال السجود بين الناس حتى ظنوا أنّه قد حدث أمر فلما قضى صلاته، سألوه عن ذلك، فقال عليه الصلاة و السلام: (إن ابني ارتحلني، فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته) رواه النسائي.

مَن منّا الآن – إلا القليل – يستطيع فعل ذلك؟ وإن قام بفعله أحد هل المجتمع الآن يتقبل هذا الفعل التربوي النبوي الصحيح، ولهذا خرج من مثل هذه المواقف سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين رضي الله عنهما.

نحتاج لوقفات ووقفات مع أنفسنا لنتعلم كيف نعيش مع أولادنا ونعيش بهم ونتعايش معهم كما ينبغي أن نعيش، فالأبناء هم مشروع العمر الحقيقي الذي إن اجتهدنا فيه وأنفقنا عليه بعضا مما يجب علينا نحوه لوجدنا ثمرة – بإذن الله – عظيمة بل أكثر مما نطمح إليه، علينا فقط الأخذ بالأسباب والنتائج من الله وحده.

وسائل لتربية الأبناء

تحتل الأم مكانة هامة وأساسية في التربية النافعة للأبناء، ويبدو ذلك من خلال وسائل عملية أضعها بين أيديكم:

- ينبغي على الأم أن تقُوم ببثِّ روح الغيرة المحمودة الحسنة سواء الدينية أو الدنيوية بين أبنائها، والتنافُس على القيام بالواجبات الدينية مثل الصلاة، والصيام، والصدقات، خاصَّة النافلة؛ بما يُنمِّي روحَ الخيرِ بين الأبناء، وحتى تزيد روح العطاء بينهم وبين بعضهم البعض، وأيضًا بينهم وبين الناس سواء أكانوا أهلًا أم جيرانًا وحتى من لا يعرفون كعابري السبيل.

- كذلك تبُثُّ الأمُّ في نفوس أبنائها من الذكور الغيرة الدينية الحسنة على بناتها، ولكن بهدوء شديد وبما يتوافق مع الشرع والعُرف وبما لا يصل بأخواتهم من النفور من إخوانهن ويجعل البنات يكرهن ما يأمرهن به من الشرع، وذلك حتى يتعوَّد الأبناء من صغرهم على حماية أُسَرهم فيما بعد، فيشاركون أخواتهم بعض التصرُّفات للارتقاء بهن وبسلوكهن في ملابسهن، ومظاهرهن، ويعملون على حمايتهن؛ وحتى تَظَلَّ صلة الرحم والمودة مستمرة بعمق داخل الأبناء وحتى نهاية العمر، وبهذا يصل الولد لأن يكون أهلًا لِصِفات الرجولة ولزيادة المحبة بين الإخوة، وتدريبه على أن يكون أهلًا للقيام بدور القوامة المطلوبة منه على أسرته وأهله فيما بعد.

– كذلك من وسائل التربية في الأسرة لجعل أبنائها لَبِنة صالحة، أن تقُوم الأم بتوجيه أبنائها خاصة الذكور منهم لأن يبدأ في تقلُّد دوره حين يغيب ربُّ الأسرة عن البيت لأيِّ سبب من الأسباب، فيأخذ دوره المنوط به في حماية أسرته مما قد يؤذيهم نفسيا أو جسديا وهذا من تدريبه على القوامة والقيام بواجبه الأسري على الوجه الأكمل فيما بعد، كما يتعود على أن يَؤُمُّ أسرته في صلاة النوافل داخل البيت وكذلك يؤمّ البنات بعضهم بعضا في الصلوات وبهذا يعتاد أفراد الأسرة على تحمل مسؤولياتهم شيئا فشيئا.

– وبما أننا الآن في عصر الإنترنت وما يسمى بثورة المكتبات والمعلومات، فينبغي على الأسرة –والأم خصوصا – أن تُكوّن نواة مكتبة ولو صغيرة في مكان ما في البيت وتكون الكتب في مكان بحيث يراه أفراد الأسرة، ويكون للأسرة جلسات دورية في هذا المكان ويتدارسون بعض الكتب والقصص التي تتناسب وأعمارهم حتى يتربون على حب القراءة والعلم، كما ينبغي للأسرة أن تَدفَع أبناءها لاقتناء الكتب بالترغيب في ذلك.

– وكذلك من وسائل التربية الأسرية النافعة، ترغيب الأبناء بالتردد على المكتبات لاستعارة بعض الكتب منها، أو الاستفادة من المكتبات بالقراءة فيها حتى يشغل الأبناء وقت فراغهم، وحتى يستعين الأبناء من الاستزادة والاستفادة مِن العِلم والثقافات المعاصرة النافعة؛ وهذا يؤدِّي بالابن أو البنت إلى التفوُّق في الدراسة، وحتى يُنمِّي عندهم الجانب الخُلقي والمعرفي، شريطة أن تكون هذه الكتب والقصص نافعة لهم –غير مفسدة لأخلاق الشباب كما نراه عند البعض في واقعنا– لذا ينبغي أن تُلاحِظ الأسرة هذا الجانب ولا تغفله حتى لا تبني من

جانب والآخرون يهدمون من جانب آخر، بالإضافة إلى بعض الوسائل الثقافية الأخرى النافعة والمناسِبة لهم كلٌ حسب ظروفه واستطاعته، كما ينبغي على الأسرة أن تقُوم بعمل بعض المسابَقات بين أبنائها في مجال ما يكون نافعا لهم؛ لتدفعهم إلى الاستزادة الدينية والعلمية والثقافية النافعة للأبناء.

أيها الآباء

- إنه لدَيْنٌ في رقابنا أن نتعرف على سير أسلافنا، ومن الواجب علينا كذلك أن نعلّم أبنائنا سيرة هؤلاء العظماء من النساء والرجال، ونبين لهم أن هؤلاء هم القدوات لنا ولمن بعدنا، خصوصاً الذين مضوا وخلّفوا سيرة طيبة لنستلهم من حياتهم الدروس والعبر في واقعنا.

- أيها الآباء؟؟ إن سير أولئك العظماء رجالا ونساء لتبعث في النفوس السويّة الشجاعة في الحق، وعلوّ الهمّة في طلب العلم، والسعي الدؤوب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام لله بالعبادة حق القيام.

- أيها الآباء؟؟ انتبهوا واعلموا أن المرأة التي فرّغت نفسها بعد موتِ زوجِها - أو في حياته إذا انشغل - على تربية أبنائها تربية صحيحة، وبدأت بنفسها فحصّنت نفسها بالوسائل الشرعيَّة المرْضية، وأوصلت أبناءها إلى الدرجات العليّة النافعة لهم في دنياهم وأخراهم، فقد قدَّمت من جليلِ الأعمالِ وعظيمِ الأفعالِ ما تستحق عليه عظيمَ الشكر وجزيل الثناء، وقبل هذا الأجر الكبير من الله.

- أيها الآباء؟؟ اعلموا أن خيرُ السبلِ التي يتوجَّه إليها المرء في سبيلُ خدمة الدين، وهي أنفعها وأبقاها وأثمرها، وأهمها وأشقّها، هي حُسن تربية الأبناء على القِيم والمبادئ الإسلامية السامية والتي يكون بها الأبناء لبِنَةً صالحة في بناء أمته ووطنه.

- أيها الآباء؟؟ إن الصعوبات التي تواجهنا في طريقنا لتربية أبنائنا- والدًا أو والدة- أنما هي محفِّزات، لا عقبات إذا ما عرفنا نهاية هذا الطريق من الخير الكثير.

- أيها الآباء؟؟ أكثروا من دعائكم لصلاح أبنائكم بدلا من أن تدعوا عليهم، ليكونوا معكم في سجودكم لربكم، وبعد صلواتكم، وفي ليلكم عندما تناجون ربكم، لا تتركوا الدعاء لهم أن يصلحهم الله فالدعاء هو السلاح القوي الذي لا ينكسر.

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعةً يُسأل فيها عطاءً فيستجيب لكم» رواه مسلم.

عن النعمان بن بشير إنَّ رسول الله قال في الحديث: «الدُّعاءُ هو العبادةُ، ثمَّ قرَأ الآيةَ: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني.

قال عليه الصلاة والسلام: «ولا يرد القدر إلا الدعاء» أخرجه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

قال الشافعي:

أَتَهْــزَأُ بِالدُعــاءِ وَتَزدَريــهِ *** وَمــا تَدري بِمــا صَنَعَ الدُّعاءُ
سِهامُ اللَيــلِ لا تُخطِي وَلَكِن *** لَهــا أَمَدٌ وَلِلأَمَــدِ اِنقِضــاءُ

وقال غيره:

وإني لأدعـو اللهَ والأمرُ ضيّــقٌ *** عليَّ فما ينفكُّ أن يتفرّجـــا
ورُبَّ فتىً ضاقت عليه وجوهُهُ *** أصاب لـه في دعوة الله مخرجا

أيتها الأمهات

-أمهاتنا الغاليات أنتنّ نصف المجتمع وتلدن النصف الآخر فأنتنّ كل المجتمع، لهذا عليكن حِملٌ كبير لا تقوم الجبال ولا الكثير من الرجال.. فعليكنّ بمهمتكنّ التي لا يقوم بها أحد غيركم.

– أيتها الأمهات الصابرات المحتسبات من الخير ألا تغلِّب الأمُّ عاطفةَ الأمومة في حبِّ بقاء ولدها إلى جوارها على مصلحته العلميَّة، لا سيما إذا اقترنت بذلك مصلحةُ الأمة ونفع المجتمع المسلم.

– أيتها الأمهات؟؟ أثبتت التجارب العلمية الحديثة والقديمة أنّ أغلب القيم الأخلاقية حسنة كانت أو قبيحة هي التي يتعلّمها الأبناء تكون في المراحل الأولى من عمره، ومن ثم تستمرّ معه حتّى يكبر، كما أثبتت هذه التجارب أن الأم هي من تُشكّل أسس الأخلاق في ذهن أبنائها؛ كالمحبة والبغض والعفة والتقوى، وهي أهم من تُعلّمهم التفريق بين الحسن والقبيح والخير والشر.

– أمهاتنا المربّيات أنتن شقائق الرجال كما بين لنا شرعنا الحنيف كثيرٌ من الأئمة الكبار الكرام ربَّتْهم أمهاتُهم وكانوا قدوةً لأجيال متكاثرة، فلا معنى لما يقوله النَّاس على سبيل الانتقاص: ربَّتْه امرأة! فهذا شرف لا يعرفه قائل هذه المقولة..

– أيتها الأمهات؟؟ الجميع من أهل التغريب ومن لا يعرف قيمتكن يتكالب عليكن حتى تتركن المهمة التي أوكلت إليكن، فهل أنتن مستمعات لهؤلاء؟؟

صفحات مشرقة

نذكر في هذه الصفحات أمهات وزوجات خلّد ذكرهن التاريخ لما قاموا به من دور عظيم، وهذه نماذج مشرقة مشَرِّفة من الأمهات، كنّ النبع الصافي والنهر المعطاء على مدار التاريخ، وإن كان البعض لا يعرف أسمائهن إلا أن ثمار غرسهن في أولادهن جعلت الجميع ينحني إجلالا واحتراما وشكرا لهن لما قدمنه لأمتهم من غراس طيب يعرفه الجميع ولا يستطيعه الكثيرين من الرجال الذين انشغلوا بغير مهمتهم التي أوكلها الله إليهم.

وصدق فيهم قول أحمد شوقي

ليس اليتيمُ مَن انتهى أبواهُ مِن
هَمِّ الحياةِ وخَلّفاهُ ذليلا
فأصابَ بالدنيا الحكيمة منهما
وبِحُسْنِ تربيةِ الزمانِ بديلا
إنّ اليتيمَ هو الذي تلقَى لهُ
أُمّاً تَخَلّتْ أو أباً مَشغولا

دورك المنشود

إن المرأة أمًا كانت أو أختًا فهي النواة الأولي لقيام المجتمع، فلها أكبر الدور في تربية وتنشئة الأبناء، ومساعدة الزوج في الأعمال، ولعل أروع مثال علي ذلك أمنا خديجة رضي الله عنها وأرضاها، كانت امرأة كما ينبغي أن تكون عليه النساء، ولعل عظمتها ترجع إلي أنها كانت موجودة في أدوارها كلها، فكانت تلك التي تهتم بتجارتها رضي الله عنها، وكانت متوفرة في بيتها وأولادها، فنجد أنها ورَّثَت كل بنت من بناتها خصلة من خصالها الحميدة الطيبة، وكانت نعم السند لزوجها لرسول الله صلي الله عليه وسلم المعينة له في كل أموره، قائمة بدورها كزوجة أحسن قيام.

يُرجِع الكثيرٌ من المؤرخين والعلماء المهتمين بشؤون الأمة السببَ في تماسُك المجتمع الإسلامي، وانتصاره المبهر على الغزاة حتى في مراحل الضعف التاريخي التي مر بها العالم الإسلامي يرجعونه للمرأة التي تقوم بدورها كأم أو زوجة أو بنت، وتمسُّكها بدينها وعقيدتها الإسلامية، فنجد أنها أثرت بالإيجاب أشد التأثير في ابنها أو زوجها، أو أبيها، أيًّا ما كان موقعها، جعلت ابنها من أبناء الآخرة دينا وعلما وخلقا، جعلته لا يكن عالة على المجتمع عيشه كعيش البعير، بل إن كثيرا من كبار حاملي الدعوة هم غرس أمهاتهم.

هل نستطيع؟؟

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم *** إن التشبه بالكرام فلاح

يقولون: «مهما فعلتم لن تبلغوا ما فعلوا». نقول لهم: «إي والله نعم لن ندرك ما أدركوا، وربما لن نستطيع ولكننا لاحقون بهم لا محالة بإذن الله إن نحن صدقنا مع الله، وسرنا في مسلكهم، ولزمنا المتابعة في طريقهم.

روى الدينوري عن أحمد بن يونس قال: «كان فتى يجالس الثوري ولا يتكلم، فأحب سفيان أن يتكلم ليسمع كلامه، فمر به يومًا، فقال له: يا فتى! إن من كان قبلنا مروا على الخيل وبقينا على حُمُر دبرة»، فقال له الفتى: «يا أبا عبد الله! إن كنا على الطريق؛ فما أسرع لحوقنا بالقوم! لن نبغي في سفرنا عن طريقهم سبيلاً ولو كان الزاد في الجراب قليلاً».

وها نحن نرى الكثير يتجرع الذل والهوان في أمتنا، وذلك لأننا أغفلنا دور المرأة وتناسيناه، فخرج لنا -كما نرى- جيلٌ مهتز الثقة بجولته وأخلاقه، وآخر ضاعت ثقته بعقيدته وملامح دينه، فتارة يميل مع أهواء الغرب، وتارة تقتلعه نزوات الشرق -عياذا بالله-!

ولعلنا نذكر من التاريخ نماذج مشرقة ومشرّفة من أمهاتٍ كنّ ذلك النبع المعطاء فكان أولادهن ثمار غرسهن وعدم الانجرار وراء الشهوات والملهيات مما نراه في واقعنا، وصدق الذي قال:

لئن كُنَّ النساء كما ذُكِرنَ *** لفُضِّلت النساء على الرجال.

الخنساء الصابرة المحتسبة

الخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية صحابية وشاعرة مخضرمة من أهل نجد أدركت الجاهلية والإسلام وأسلمت، واشتهرت فيما اشتهرت به رثائها لأخويها صخر ومعاوية اللذين قتلا في الجاهلية ورثتهما وخاصة أخوها صخر الذي قالت فيه شعرا قيل فيه لو قيل في الزمان لكفاه، من كثرة بكائها له وعليه، لقبت بالخنساء بسبب ارتفاع أرنبة أنفها وجمالها.

ذكر أنها تزوجت من رجل من قبيلتها اسمه عبد العزى السلمي ولدت منه ابنها «أبا شجرة» عبد الله، وكان هذا الزواج من عبد العزى المقامر العربيد بلاء عليها، وهي التي رفضت سيد بني جشم، ومن قبله رفضت سيد آل بدر. وقد أشارت إلى ذلك في قولها « أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح».

حاولت الخنساء أن تمسك عليها زوجها، فضّحت في سبيل ذلك بالكثير.. غيرت من طبيعتها وكبريائها، بل إنها بالغت في ذلك لدرجة جعلته يشعر بتعلقها به، فغالى في انحرافه وشروده عنها، واستغل حرصها عليه أسوأ استغلال، وانتهز مالها ومال أخيها، وكلما فرغت يده أظهر لها الضيق بحياته معها، فهم بالرحيل عنها ولكنها تتشبث به وتقول له: «أقم وأنا آتي صخراً فأسأله». ويقيم عبد العزى – تكرماً منه وعطفاً – فذهب الخنساء إلى أخيها صخر تشكو إليه قلة ذات اليد وما تلقى من ضيق العيش، فما يكون من أخيها صخر الكريم الجواد

إلا أن يشطر ماله شطرين، يعطيها خيرهما، لكن عبد العزى يستمر في غيّه ونفوره وعربدته كما هو بدلا من أن يقابلها بالحسن، فيأخذ كل ما جاءت به من أخيها، ثم ما يلبث أن يأتيها صفر اليدين كعادته.

لم يطل بالخنساء المقام بعد عبد العزى هذا حتى تقدم إليها مرداس بن أبي عامر السلمي، وكان أفضل من زوجها الأول، فكان يحبها ويحنو عليها فكان كريما سخيا حتى لُقب بالفيض لسخائه.. وكان ذلك بعد مقتل صخر أخيها وموت أبيها، وكان مرداس هذا الزوج الكريم يجمع إلى سخائه أنه كان رجل جد وعمل لم يترك فرصة إلا اهتم بها، ليوفر لأسرته أهنأ عيشة وأحسنها وأطيبها، لكنه ما لبث أن مات في إحدى مغامراته تاركاً للخنساء أربعة من الأولاد هم: العباس، وزيد، ومعاوية، وبنتٌ اسمها عمرة.

وتحزن الخنساء لفقد مرداس حزنا شديدا فقد فقدت زوجها الأول، وبعده موت أبيها وأخيها صخر الذي كان السند الذي تستند عليه بعد ربها، ثم موت زوجها مرداس الذي كان في رأيها أفضل الناس خُلُقا وحلماً ومروءة وشجاعة، مصائب تترا يتلو بعضها بعضا، كل واحدة منها لا يتحملها الجبال، فزواج ليس كما ينبغي من عبد العزى المقامر، ثم موت الأب ثم مقتل الأخ صخر، فزواج طيب حسن ما أيلبث يتحول إلى كابوس بموت زوجها هذا الرجل الذي لا يعوض ويترك لها أربعة أبناء ومن قبل ابنها من عبد العزى الذي كان شبيها بأبيه لبعض الوقت ثم أسلم فيما بعد.

الخنساء الأم

لم تكن الخنساء الأم مثل الكثير من النساء اللاتي يكون جلّ اهتمامهن فقط بالمأكل والمشرب أو التزين بكل زينة يعرفها عصرها، أو هي التي لا تهتم ببناء أولادها وتربيتهم احسن تربية، بل قامت بغرس أفضل الأخلاق في بنيها من مرداس بن ابن عامر السلمي، فكانوا نعم الأبناء مع أمهم التي قامت عليهم وحفظتم وربتهم فأحسنت تربيتهم.

موقفٌ خالد

أسلمت الخنساء فحسُن إسلامها، وكذلك تبعها أبناءها فأسلموا جميعا، وحضرت الخنساء رضي الله عنها معركة القادسية مع المسلمين، وكذلك كان معها بنوها الأربع، تزحف مع الزاحفين للقاء الفرس، وبينما المسلمون يحشدون جندهم، ويعدون عدتهم لمعركة فاصلة مع الفرس في القادسية تحت لواء سيدنا سعد بن أبي وقاص، كانت الخنساء قد جمعت أبناءها الأربعة، لتُلقي إليهم بوصيتها الخالدة ومما جاء على لسانها في خطبتها ليلة القادسية تشجع أبناءها الموت في سبيل الله، والإقدام في المعارك مع الكفار وهي تقول: «يا بنيّ، أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم!، وتعلمون ما أعده الله للمسلمين من الثواب الجزيل في

حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خيرٌ من الدار الفانية يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران:200]، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلي عدوكم بالله متبصّرين وعلي أعدائه منتصرين. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظى على سياقها وجللت نارًا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة».

وقد استشهد أبناؤها جميعاً في حرب القادسية. وبلغها الخبر – رضي الله عنها – مع الجيش العائد محملاً بالظفر، فقالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته». قالتها ولم تزد عليها، وهي التي قبل الإسلام بكت صخرا بشعر لو قيل في الزمان لكفاه، لكنها الآن الخنساء المسلمة الصابرة المحتسبة العالمة بربها وشريعة نبيها وأين يذهب بعد القتال مع الكفار أبنائها، علمت كل هذا من الإسلام فصبرت واحتسبت رضي الله عنها، يأتيها النبأ بالاستشهاد، فتقول: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مُستقرِ رحمته».

والآن دورك أنت يا خنساء عصرنا في تربية أبنائك التربية التي تليق بكِ كمسلمة تعرف ربها، وتدرك دورها، وتسير بشرع ربها في تربية أولادها، فهيا هيا قبل فوات الأوان، الفرصة الآن في يدكِ أدركيها قبل أن تندمي ولا ت حين مندم.

الإمام الثوري

سفيان الثوري هو فقيه العرب ومحدثهم وأمير المؤمنين في الحديث، إنه الإمام سفيان ابن سعيد بن مسروق الثوري، ولد سنة ٩٧هـ في مدينة الكوفة ونشأ بها، وتعلم فيها العلوم الإسلامية، ونبغ في علم الحديث النبوي الشريف حتى حصل على درجة «أمير المؤمنين في الحديث وهي أعلى درجة علمية في هذا العلم، وكان أيضا عالما بالقرآن الكريم وتفسيره، متقنا لقراءته، وظل يعلم العلم ويؤلف فيه الكتب حتى توفي في عام 161هـ.

قال زائدة في شأنه: الثوري سيد المسلمين، وقال الإمام الأوزاعي عنه: لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا إلا سفيان الثوري، فكان عالماً شامخاً وإماماً جليلاً، وطلب العلم وهو حدث باعتناء والده، المحدث الصادق: سعيد بن مسروق الثوري، وكان والده من أصحاب الشعبي، وخيثمة بن عبد الرحمن، ومن ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين، روي لسعيد والد الثوري أصحاب الكتب الستة في دواوينهم، وحدث عنه أولاده: سفيان الإمام، وعمر، ومبارك، وروي له شعبه بن الحجاج، وزائدة، وأبو الأحوص، وأبو عوانه، وعمر بن عبيد الطنافسي، وآخرون.

الأب الذي نريد

أهم شيوخ سفيان الثوري الذي أثّر فيه وجعله يصل لدرجة كبيرة في كثير من العلوم كان في مقدمة شيوخه الذين أخذ منهم العلم، هو والده، ثم بعد ذلك كان شيوخه الآخرين، منهم الأسود بن قيس، وزياد بن علاقة، ومحارب بن دثار. ويقال: عدد شيوخه ستمائة شيخ.

لكن أكثر الناس تأثيرا هم الآباء في أبنائهم، فهم أول من يتعلمون منهم أكثر العلوم بل والعادات سواء كانت حسنة أو قبيحة، وخاصة في الصِّغر، فالابن عندما يفتح عينيه في الدنيا أول ما يراه هو أبوه وأمه. لذلك ينبغي على الأسرة أن تنتبه لمن تعول فالأبناء هم فلذات الأكباد، وهم أهم ثروة تمتلكها الأسرة فإذا ما فرطت فيها ضاعت ثروتها ومن ثم تندم لتفريطها في أعزّ ما تملك وحينها لا ينفع الندم، وتخسر الأسرة شيئا لا يمكن تعويضه بمال الدنيا. فتعاهُدِ الأبناء بالتربية الحسنة على الشرع والأخلاق والمبادئ العامة الهامة، وهذا الأولى والأهم أن يكون في الصِّغر أكثر منه في الكِبَر، لهذا قال الشاعر الحكيم صالح عبد القدوس:

قد يبلغُ الأدبَ الأطفالُ في صغرٍ
ولـيس ينفعهُـم من بعـدِه أدبُ
إن الغُصُونَ إِذا قَوَّمْتَهـا اعتدلْت
ولا يـلينُ إِذا قـوَّمْتَـهُ الخَشَـبُ

ويجب أن تكون هذه التربية ليس بالكلام وفقط بل لابد من القدوة الحسنة، فهي أهم ما يتأثر به الطالب سواء كان ابن أو غيره.

قال أحد الحكماء: (الابنُ مع أبيه واحدٌ من ثلاثةِ: إما لاحقٌ، أو ماحقٌ، أو سابقٌ.. فاللاحقُ: هو الذي يلحقُ أباهُ في شرَفهِ، والماحقُ هو الذي يمحقُ شَرفَ أبيهِ بِسُوء فِعَاله، والسابقُ هو الذي يسبقُ أبَاهُ ويَفُوقُهُ في الشَّرفِ).

قال ابن الرومي في هذا المعنى:

قالوا أبو الصقرِ من شيبانَ قلتُ لهمْ
كلّا لعمــــري ولكنْ منـــه شيبـــان
وكم أب قـــد علا بـابنٍ ذُرا شـرف
كمــــا علا برسـولِ اللّهِ عـدنــــان
تَسْمُــو الرِّجـالُ بـــــآبـاءٍ وآونــــةً
تسمــــو الرجــالُ بأبـنــاءٍ وتزدان

ومما يُروى في هذا المعنى أيضا قصة عتبة بن أبي سفيان رحمه الله أو أحد الخلفاء لما اختار لأبنائه معلماً، فأوصاه قائلا له: (ليكن أولَ ما تبدأُ به من إصلاحِ بَنِيَّ إصلاحُ نفسِكَ، فإنَّ أعينهم معقودةٌ بعينيكَ، فالحسنُ عندهم ما استحسنت، والقبيحُ عندهم ما استقبحت، وعلِّمهم كتاب الله تعالى، ولا تُكْرِهْهُم عليه فيملُّوه، ولا تترُكْهُم منه فيهجروه، ثمَّ روِّهم من الشعر أعفَّه، ومن الحديث أَشْرَفَه، ولا تخرجْهُم من عِلْمٍ إلى غيره حتى يُحْكِمُوه، فإنَّ ازدحامَ الكلام في السمع مَضَلَّةٌ لِلْفَهْمِ).

نعم الأمّ

ما وصل سفيان الثوري رحمه الله لما وصل إليه إلا بتوفيق الله وحده ثم ما كان من دور كبير للأسرة وخصوصا الأمُّ الصالحة المتهمة بابنها، فتكفلت أم الثوري بعد وفاة أبيه الذي توفي وسفيان صغير السنّ، فقامت بتربيته على حب العلم، ومن ثم بالإنفاق عليه كل غالٍ ونفيس حتى يصل لما تطمح إليه، فكان لهذه التربية وهذا الإنفاق ثمرته المرجوة التي أثمرت عالما متبحرا يشار إليه بالبنان في فنون كثيرة. يحكي عن نفسه فيقول: لما أردت طلب العلم قلتُ: لابد لي من معيشة، ورأيتُ العلم يذهبُ ويندثر، فقلت: أفرغ نفسي في طلبه، وسألتُ الله الكفاية أي – أن يكفيه أمر الرزق –، فكان من كفاية الله له أن قيَّض له أمه، التي قالت له: «يا بني، اذهب واطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي». فهي لم تكن ثريّة عندها من المال الكثير، بل كانت تعمل في مهنة الخياطة بالكاد تتكسب منها ما يكفيها وولدها، فقالت له لا تهتم بأمر النفقة بل اهتم أنت بطلب العلم، وأنا أكفيك المؤونة بعملي بهذه المهنة الشريفة، وكان لها ما أرادت.

ومما يؤثر عنها في حسن تربيتها لابنها، أنها كانت تتعهده بالنصح والوعظ وتحضه علي تحصيل العلم، فكان مما قالته له ذات مرة: «أي بني، إذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل تري في نفسك زيادة في خشيتك وحلمك ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك». الله أكبر ما أعظم وأفضل هذه التربية، تربية تقوم على تعويد

الطفل على مراقبة الله منذ الصِّغر، لذلك لا نستغرب أن يخرج من هذا البيت هذا الرجل العالم التقي الورِع. هكذا كانت أمه رضي الله عنها، فكان سفيان رحمه الله، وهذه هي الثمرة والنتيجة الطبيعية لأُمٍ صالحة، حفظ التاريخ مآثرها وفضائلها ومكانتها ودورها في حياة ولدها.

طريق صعب لكنه خير

لم يكن طريق سفيان الثوري نحو طلب العلم مفروشاً بالورود كما يظن البعض، وكما يريد البعض الآخر، وإنما كان مليئا بالصعاب والعقبات والمتاعب والتي لابد منها في طريق الصلاح والإصلاح، لكنه رحمه الله تغلب عليها وتجاوزها بفضل الله وحده ثم عزيمته الصادقة، مع دعم ومساندة أمه له طوال مسيرته العلمية، فقد كان لها الأثر الكبير والمهم في تنشئته نشأة صالحة يحبها الله ورسوله، فهي التي ربته على حب طلب العلم من صغره، وحب الاشتغال به، الأمر الذي أشار إليه سفيان الثوري نفسه، قائلاً: لما أردت أن أطلب العلم، قلت: لا بد لي من معيشة، ورأيت العلم يذهب ويندثر، فقلت أُفرغ نفسي في طلبه، وسألت الله الكفاية، يعني أن يكفيه أمر الرزق، فكان من كفاية الله له في ذلك أن قيض له أمه الصالحة القانتة فقالت له: يا بني، اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي. وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلم، ليتفرغ للعلم من جانب، وتقدم له النصيحة والموعظة التي تعينه على مراقبة الله من جانب آخر. قال وكيع بن الجراح: قالت أم سفيان الثوري له: يا بني، إذا كتبت عشرة أحاديث أو عشرة أحرف، فانظر هل ترى في نفسك زيادة في مشيك وحلمك ووقارك؟ فإن لم تر ذلك فاعلم أنه يضرك ولا ينفعك.

واستمرت أم الثوري في مساندته والشد من أزره، وخففت عنه هموم ومتاعب ومشاغل الحياة، حتى تبوأ السيادة في العلم والإمامة في الدين،

وأصبح إمام الدنيا الذي يشار إليه بالبنان. وكانت مجتهدة في الطاعة والتعبد، زاهدة في الدنيا، لا تريد من الحياة سوى رضا الله تعالى عنها، وأن ترى ابنها من علماء الدين الأفذاذ، وذات مرة دخل عليها سفيان فلم ير في بيتها غير قطعة حصير، فقال لها: لو كتبت رقعة إلى بني أعمامك لغيروا من سوء حالك، فقالت: يا سفيان قد كنت في عيني أعظم وفي قلبي أكبر منذ ساعتك هذه، أمَا إني ما أسأل الدنيا من يملكها -تقصد ربها- فكيف أسأل من لا يملكها -تقصد أهلها-، يا سفيان، والله ما أحب أن يأتي عليّ وقت وأنا متشاغلة فيه عن الله بغير الله، فبكى سفيان.

حوار وعبرة

قضت الأم يوما طويلا تغزل من الخيوط أقمشة جميلة لتبيعها في اليوم التالي في سوق مدينة الكوفة، وقالت وهي تعد قطع القماش: سيكفي الثمن الذي سأتقاضاه بإذن الله من بيع هذه القطع لشراء الكتب التي يحتاجها ابني سفيان.

وأسندت ظهرها إلى الجدار، ورجعت بها الذاكرة إلى الحوار الذي دار بينها وبين ابنها منذ زمن.. الابن قائلا.. أمي أحب العلم ومجالسة العلماء.. الأم.. وما يمنعك منه يا بُنيّ.. الابن أمي ليس لدينا مال يكفي لكي أتفرغ للعلم ولابد أن أعمل حتى نعيش، لكني يا أمي قد دعوت الله أن يكفيني ذلك. الأم.. يا بني اطلب العلم، وبإذن الله أكفيك بمغزلي.

ومنذ ذلك اليوم وأم سفيان تعمل بمغزلها، وتقدم لولدها ما يحتاجه من المال والكتب؛ ليتفرغ هو للعلم ويحضر جميع حلقات العلماء في المسجد، وكانت تفرح بولدها كلما رأته تعلم بابا جديدا من العلم، وتنصحه وترفع من همته.

إنها الأم

هذه الأم العظيمة الصالحة التي تعهدت ابنها بالرعاية والتربية وشجعته على طلب العلم، لن يخذلها الله ولن يضيع جهدها هباءً، بل سترى -بإذن الله – ثمرة جهدا في ابنها في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ {سورة العنكبوت الآية (69)}.

فلا غرابة أن يصير ابنها إماما من أئمة المسلمين وعالما جليلا في علوم الفقه والحديث الشريف، إنه الإمام سفيان ابن سعيد بن مسروق الثوري، أمير المؤمنين في الحديث، العالم بالقرآن الكريم وتفسيره، متقنا لقراءته عاملا به، وظل يعلم العلم ويؤلف فيه الكتب حتى توفي في عام 161هـ. رحمه الله ورحم أمه وأباه صاحبا هذا الفضل عليه بعد الله.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم *** إن التشبه بالكرام فلاح

روى الدينوري عن أحمد بن يونس قال: «كان فتى يجالس الثوري ولا يتكلم، فأحب سفيان أن يتكلم ليسمع كلامه، فمر به يومًا، فقال له: يا فتى! إن من كان قبلنا مروا على الخيل وبقينا على حُمُر دبرة»، فقال له الفتى: «يا أبا عبد الله! إن كنا على الطريق؛ فما أسرع لحوقنا بالقوم! لن نبغي في سفرنا عن طريقهم سبيلاً ولو كان الزاد في الجراب قليلاً».

إمام المدينة

هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحى الحميري المدني، وُلد الإمام مالك سنة 93هـ. فقيه ومحدِّث وثاني الأئمة الأربعة بلا منازِع، وصاحب المذهب المالكي المشهور في الفقه الإسلامي.

اشتُهر –رحمه الله– بغزارة علمه، وسلامة حُجّته، وقوة حفظه للحديث النبوي وتمكُّنه فيه، وكان معروفاً بالصبر والذكاء وكان ذا حلم وهيبة ووقار، صاحب خُلُق حَسن، وقد أثنى عليه علماء عصره، قال فيه الإمام الشافعي بقوله: «إذا ذُكر العلماء فمالك النجم». وقال أيضًا «مالكٌ حجة الله على خلقه بعد التابعين». من أهم كُتبه «الموطأ» الذي يُعدُّ من أوائل كتب الحديث النبوي وأشهرها وأصحِّها وأهمّها، حتى قال عنه الإمام الشافعي: «ما بعد كتاب الله تعالى كتابٌ أكثرُ صواباً من موطأ مالك». وتوفي رحمه الله سنة 179هـ.

الأسرة المنشودة

نشأ الإمام مالك في بيت اشتغل بعلم الحديث والأثر، كما حفظ القرآن الكريم في صِغره، كما هو الشأن في أكثر الأسر الإسلامية التي يتربى أبناؤها تربية دينية، ثم اتجه بعد حفظه للقرآن الكريم إلى حفظ الحديث، فوجد من بيئته محرضاً، ومن المدينة موطأً ومشجعاً، ولذلك اقترِح على أهله أن يذهب إلى مجالس العلماء ليكتب العلم ويدرسه، فسرعان ما أجابوه لطلبه، وهذه البيئة التي عاش فيها الإمام مالك كانت مشغولة بهذه العلوم حديث وتفسير وأقوال الصحابة والتابعين مما أثر في تكوين هذا الإمام، فبيته الذي نشأ فيه كان مشتغلاً بالحديث وعلومه الخاصة به، واستطلاع الآثار وأخبار الصحابة وفتاويهم، فهذا جده مالك بن أبي عامر كان من كبار التابعين وعلمائهم، وقد روى جده عن مجموعة من الصحابة، أما عن أبيه أنس بن مالك –وهو غير أنس بن مالك الصحابي المعروف خادم رسول الله– فكان هو وأعمام الإمام مالك وجَدِّه، من المشتغلين بالعلم المحبين له، ويكفي هذا شرفًا أن تكون الأسرة من الأسر المشهورة بالعلم، كما كان أخو مالك وهو النضر بن أنس فقد كان ملازماً للعلماء أيضا يتلقى عليهم ويأخذ عنهم، كل هذا أثّرَ في تكوين شخصية الإمام مالك مما جعله فيما بعد مشهورا بإمام دار الهجرة –المدينة المنورة– مع ما فيها من العلماء الأفذاذ.

شهد للإمام مالك سبعون شيخاً من أهل العلم في عصره بأنه من العلماء وأنه أهلٌ للفُتيا، ثم بعد شهادتهم له بالعلم، اتخذ له مجلساً في

المسجد النبوي للدرس والإفتاء، وقد عُرف درسُه بالسكينة والوقار والهيبة، وكان يتحرزُ أن يُخطئ في فتاويه، كما كان يُكثرُ من قول «لا أدري»، وكان يقول: «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه».

كان يقول في هذا المقام وفي بيان حاله عندما نزعت نفسه إلى الدرس والإفتاء: «ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس، حتى يشاوِر فيه أهلَ الصلاح والفضل والجهة من المسجد، فإن رأوه لذلك أهلاً جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخاً من أهل العلم أني موضع لذلك».

وقد كان جلوس مالك للإفتاء في المسجد النبوي بعد أن اكتمل عقله ونضج فكره، وفي حياة بعض شيوخه.

أم الإمام

كل ما فيه الإمام مالك من هذا الخير الذي لا يحصله إلا من وفقه الله وجعل له بيئة سليمة، وأسرة صالحة تعرف قيمة أبنائها ومقدار نفعهم لوالديهم في الدنيا والآخرة، هذا النبوغ في العلم الذي جعله إمام الدنيا في الفقه والحديث وغيرهما من العلوم، كانت خلفه أمُّه عالية بنت شريك الأزدية -رحمها الله- التي كان لها النصيب الأوفر فيما وصل إليه الإمام مالك، روى ابن أبي أويس عن أم مالك ابن أنس قائلا: سمعت خالي مالك بن أنس يقول: كانت أمي تلبسني الثياب، وتُعمّمُني -أي تُلبسني العمامة- وأنا صبي، وتوجهني إلى ربيعة بن أبي عبد الرحمن -المعروف بربيعة الرأي- ، وتقول: «يا بني! ائت مجلس ربيعة؛ فتعلم مِن سَمْتِه وأدبه، قبل أن تتعلم مِن حديثه وفقهه».

ذكر الإمام مالك لأمه -المرأة الصالحة التقية النقية- أنه يريد أن يذهب فيكتب العلم، ويتعلم من العلم كما يتعلم أقرانه، ماذا فعلت أمه؟ هل قالت كما تقول الأمهات اللاتي لا يعرفن قيمة ما أعطاهن الله من نعمة الأولاد التي قد يُحرم منها غيرها؟ لا؛ بل قامت مباشرة وشجعته ورغّبته فيما طلب، وألبسته أحسن الثياب وعممته، ثم قالت: «اذهب فاكتب الآن»، وكانت تقول له: «اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه». بمثل هؤلاء الأمهات يصير الأبناء علماء في أي فنّ، وبمثل هذه الأُسر نصل لما نطمح إليه من جيل مسلم يعرف للعلم قدره، وللوالدين حقهما، وللأوطان واجبها، الجيل المنشود في قيمه

وأخلاقه، في معاملاته ومبادئه، جيل يُفتخَر به بين الأمم. ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سورة يوسف: 21].

﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [سورة الإسراء: 51]

الإمام الشافعي

هو محمّد بن إدريس بن العبّاس الهاشمي القرشيّ، يلتقي في نسبه مع النبيّ في عبد مناف. وُلدَ الإمام الشّافعي في بلاد الشّام وتحديدًا في مدينة غزّة الفلسطينيّة –حرسها الله –، عام 150هـ، توفي أبوه وعمره سنتان، ومن ثم انتقلت به أمُّه هذه المرأة الحكيمة العاقلة إلى مكة المكرمة، عاش الشافعي طفولته فقيرًا يتيمًا، لكن بوجود أمّ كأمه جعلته أفضل من أقرانه، فوقفت بجواره ووفرت له كل مات يحتاجه، جعلته مشروعها وهدفها في دنياها حتى حفظ القرآن الكريم وهو صغير، ولشدة فقره كان أثناء حفظه للقرآنَ في الكتَّاب كان لا يُعطي معلِّمَه أجرًا على تحفيظِه وذلك لقلّة ذات يده، فاكتفى منه المعلِّم لمّا عَرف منه يُتمه وفقره بأن يكون عريف الحلقة؛ أي ينوب عن الشيخ على الطلاب إذا قام هو للطعام أو للراحة أو نحو ذلك، وبعد ذلك لما جلسَ في حِلَقِ أهل العلم كان يذهب إلى ديوان الإمارة يستوهب الموظفين الأوراقَ التي هم في غنًى عنها؛ وذلك حتى يكتب على ظهورها ما يتلقَّاه في حلقات العلم من دروس، وحتى لا يشتري أوراق يكتب فيها.

الشافعي الإمام

اشتهر الشافعي –رحمه الله– بحدّة ذكاءه واجتهاده وسرعة بديهته وقوّة حفظه، حتى أنه حفظ الكثير والكثير من أشعار العرب، وقد اتّجه بعد حفظه للقرآن إلى طلب العلم وحفظ الأحاديث النبوية، كان من الأئمّة الكبار أصحاب المذاهب الأربعة. فقد أجازه الإمام مالك للفتوى وهو في الخامسة عشر من عمره!.

وقد أكثرَ العلماءُ من الثناء عليه، حتى قال فيه الإمام أحمد: «كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس»، وقال فيه أيضا «ما أحد مس بيده محبرة ولا قلمًا إلا وللشافعي في رقبته منّة، ولولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث، وكان الفقه مقفلًا على أهله حتى فتحه الله بالشافعي».

وقال عبد الرحمن بن مهدي فيه: «لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني لأنني رأيت كلام رجلٍ عاقلٍ، فصيح نصيح، فإني أُكثر الدعاء له، وما ظننت أن الله خلق مثل هذا الرجل».

قال: المبرد: «رحم الله الشافعي فانه كان من أشعر الناس، وآداب الناس وأعرفهم بالقرآن».

أمٌّ نفتقدها

مات والد الإمام الشافعي، فكان وفاء الأم أن تجعل الابن محمد بن إدريس الشافعي إمامًا، فأخذته من غزة إلى مكة وهناك تعلم القرآن الكريم وحفظه وهو ابن سبع سنوات، ثم أرسلته إلي البادية ليتعلم اللغة العربية فحفظ من الشعر أكثره، حتى برع في الشعر وفاق أقرانه فيه، كما تعلم الفروسية والرماية فكان يضرب مائة رمية لا يُخطئ منها واحدة، ووصل لدرجة كبيرة جعلته يقول عن نفسه:

وَلَولا الشِعرُ بِالعُلَماءِ يُزري
لَكُنتُ اليَومَ أَشعَرَ مِن لَبيدِ
وَأَشجَعَ في الوَغي مِن كُلِّ لَيثٍ
وَآلِ مُهَلَّبٍ وَبَني يَزيدِ
وَلَولا خَشيَّةُ الرَحمَنِ رَبّي
حَسِبتُ الناسَ كُلَّهُمُ عَبيدي

كان –رحمه الله– أيضاً إمامًا في التفسير والحديث والقضاء والفُتيا، لم تترك أم الشافعيّ الأمور تسير بابنها حسب الظروف، وإنما أخذت القرارات التربوية، وحددت أهدافها التي ستقوم بها مع ابنها وفاءً لزوجها والد الشافعي حتى تجعله أفضل من أقرانه علما وأدبا وأخلاقا، وقد كان لها ما أرادت، فالله – سبحانه – لا يضيع أجر من أحسن عملا وأخذ بالأسباب.

كيف لا وأمه كانت ذات ذكاء وفقه في دين الله، فقد ذكر المؤرخون أنها تقدمت هي وامرأة أخري مع رجل للإدلاء بشهادة أمام القاضي، فأراد القاضي أن يفرق بينهما، فقالت له: ليس لك ذلك، ثم ذكرت قول الله تعالي: {أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى} [البقرة: 282]، فانصاع القاضي لقولها.

وصية ما أعظمها

أوقفت أم الإمام الشافعي ابنها بين يدها ذات يوم، وقالت له: «أي بني عاهدني على الصدق»، فعاهدها الشافعي أن يكون الصدق له في الحياة مسلكاً ومنهاجاً. يروي الشافعيّ لنا نشأته فيقول: «كنت يتيماً في حجر أمّي ولم يكن لها ما تعطيني للمعلّم، وقد رضي منّي أن أقوم على الصبيان إذا غاب وأخفّف عنه، وحفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطّأ وأنا ابن عشر، ولما ختمت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء وأحفظ الحديث أو المسألة وكان منزلنا في شعب الحيف، ما كنت أجد ما أشتري به القراطيس فكنت آخذ العظم وأكتب فيه وأستوهب الظهور – أي الرسائل المكتوبة– وأكتب في ظهرها». يقول الشافعي: فعدت إلى أمي أقول لها: «يا أماه تعلمت الذل للعلم والأدب للمعلم». فقالت له بلسان حالها بهذا ستصل –بإذن الله– لما تريد، وستفوق أقرانك. فالعلم كلما ذَللتَ نسك له كلما أعطاك ما تريد.

فهو القائل:

أَخي لَن تَنالَ العِلمَ إِلّا بِسِتَّةٍ *** سَأُنبيكَ عَن تَفصيلِها بِبَيانِ
ذَكاءٌ وَحِرصٌ وَاِجتِهادٌ وَبُلغَةٌ *** وَصُحبَةُ أُستاذٍ وَطولُ زَمانِ

وقال أيضا عن العلم وفضله:

اِصبِر عَلى مُرِّ الجَفا مِن مُعَلِّمٍ *** فَإِنَّ رُسوبَ العِلمِ في نَفَراتِهِ
مَن لَم يَذُق مُرَّ التَعَلُّمِ ساعَــةً *** تَذَرَّعَ ذُلَّ الجَهلِ طولَ حَياتِهِ
وَمَن فاتَهُ التَعليمُ وَقتَ شَبابِــهِ *** فَكَبِّر عَلَيهِ أَربَعاً لِوَفاتِــــــهِ
وَذاتُ الفَتى وَاللَهِ بِالعِلمِ وَالتُقى *** إِذا لَم يَكونا لا اِعتِبارَ لِذاتِهِ

قال فيه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وكيف يخفى وهو الحجَّة في العلم كله؟ وما من صاحب فنٍّ إلا ويعرف له قدره، فهو حجَّة في التفسير والحديث وعلومهما، حجَّة في الفقه والأصول وسائر العلوم الشرعيَّة، حجَّة في اللغة: أدبًا ونحوًا وبلاغة وشعرًا وغيرها، حجَّة في سائر العلوم التي ظهرت في عصره.

فلا عجبَ أن عدَّه العلماء مجدِّدَ الدين في القرن الثاني الهجري، وهذا حقُّه رحمه الله وأجزل له المثوبة، ونضيفُ إلى ذلك أنَّه كان مؤسسَ علوم عظيمة، بُنِيَتْ وشُيِّدَتْ على أصول بيَّنَها ووضَعَها.

هذا الإمام هو محمد بن إدريس الشافعي الذي لا تخفى مناقبُه، ولا تغيب فضائلُه.

وبقي في كفالة أمِّه، التي ما انفكَّت تسعى جاهدة في تربيته وتعليمه بهمَّة ترى كبريات الأمور صغارًا، وقد نذرت الأم العاقلة ابنَها للعلم تجوب به البلدان، وتقدمه إلى الشيوخ، وتلتمس له مكانًا في الحلقات، حتى صار الشافعيُّ هو الشافعيَّ الذي ملأ طباق الدنيا علمًا، والمطلوب منا معرفة ماذا فعلت أمه؟ وماذا حصَّلت وحصّل هو؟ فها نحن نرى أن

الله هداها أن وضعت ابنها على الطريق الصحيح، تؤمِّل له المستقبل المزهر المشرق، وقد كان لها ما أمَّلت، وفوق ما أمَّلت.

رحم الله أمّ الشافعي ورضي عنها على ما قدمت لابنها وما قدمه ابنها للإسلام والمسلمين من خدمات جليلة يعرفها القاصي والداني، وله على الجميع مِنّة وفضل.

والآن دوركِ أيتها الأمّ الفاضلة، ودوركَ أيه الأب الفاضل في تحديد هدفك والتخطيط السليم لجعل ابنك يصل لما يُطمح إليه في العلم والعمل فيما ينفعه في دنياه وأخراه، ومن ثم يكون نافعا لكما دنيا وأخرى، كما يكون نافعا لدينه وبلاده وأمته، ولنتذكر دائما قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 69].

ابن حنبل الإمام

هو أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، أحد الأئمة الأعلام. وُلِد الإمام أحمد في ربيع الأول في بغداد سنة أربع وستين ومائة، ومات والده شابًّا، له نحو من ثلاثين سنة، وكان الإمام صغير السن ومن ثم عاش حياته الأولى يتيمًا، فقامت أمُّه على تربيته؛ كما ذكر الإمام الذهبي في كتابه (سير أعلام النبلاء).

يقول الإمام أحمد أنه لم يرَ أباه وهو طفل صغير، فقد قال: «لم أرَ جدي ولا أبي»، مات أبوه بعد ولادته وهو صغير لا يعي ولا يدرك شيئاً، ترك له أبوه قد منزلاً ببغداد يسكنه، وآخر يدرّ له أمولا قليلة من ريعه كانت تعطيه الكفاف من العيش، فتوفر له بسبب ما يُدخِله له هذا العقار – وإن كان الدخل قليل – أسباب الاستغناء عما في أيدي الناس.

طلب الإمام أحمد العلم وهو ابن خمس عشرة سنةً، وطاف في البلاد، وسمِع من علماء عصره، وكان علماء عصره يجلُّونه ويحترمونه في حال سماعه منهم.

أمّ خرّجت عالِم

إذا تنافس الخبراء من الغرب أو الشرق في مجال أحدث طرق التربية السلوكية وأنجحها، أو تباهى الغرب والشرق بتقديم بعض البرامج في فنون التربية وتقويم السلوك عند الأبناء، نفتخر نحن أمة الإسلام بمثل هذه الأمهات العظيمات اللاتي أخرجن لنا جيلا تتصاغر أمامه الدنيا بأثرها. يُطلّ علينا من عبق التاريخ امرأةٌ ربّت ابنها فأحسنت تربيته، وعلّمت هذا الابن تعليما صار بحسن تربيتها وتعليمها إياه منارةً في العلم، حتى وصل لأن يكون صاحب المذهب المنسوب إليه والمعروف به (المذهب الحنبلي) أيّ ابداع في التربية وأيّ تميّز في التعليم. لكنها الأم العظيمة الفاضلة، الصالحة القانتة، لم تكن أما وفقط بل كانت نموذجاً مشرفاً في التحدي والعزيمة والإصرار، وأيضا كانت مثالاً رائعاً في التضحية بكل ما تملك حتى يكون ابنها مثالا يُحتذي به في العلوم، وكانت منارة في الإيثار لابنها على نفسها، فقد تحملت رحمها الله الصعاب والمشاق بمفردها لتحقيق أمنيتها في ابنها، فلما أخذت بالأسباب وتحملت المشاق حقق الله لها أمنيتها وما تطمح إليه، فأهدت للعالمين أعلم أهل السنة ورعا وعلما وفقها، وأحد أئمة المذاهب الأربعة، هذه هي السيدة الفاضلة والأم العظيمة، صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك بن شيبان، توفي زوجها محمد بن حنبل شاباً في الثلاثين من عمره، وكانت في العشرين من عمرها، وكان من الأمور المتعارف عليها في تلك الفترة أن تتزوج المرأة إذا ترملت أو

طلقت، وكان غالبية نساء العرب يفضلن الزواج إذا مات الزوج صوناً للعفة وحفاظاً على السمعة، لكن أم الإمام خالفت كل هذه العادات، ورفضت الزواج بعد وفاة زوجها رغم أنها ما تزال في ريعان شبابها. ووهبت حياتها لرعاية ابنها اليتيم، فقد اختارت أن تكون أرملة وهي في سن الشباب، وقررت أن تترك هذا من أجل ولدها فملأت عليه حياته وملأ عليها حياتها، وحرصت أمه على أن ينشأ هذا الابن على حب الله ورسوله. كانت هذه الأم العظيمة كأي أمّ تحلم بأن ترى ابنها من أفضل أقرانه ومن أعظم علماء الإسلام الذين يرفعون رايته في مشارق الأرض ومغاربها، لكن هذه الأماني لا تأتي بالراحة فقد قيل (من طلب الراحة ترك الراحة)، ولا تأتي بالنوم أو الكلام دون العمل، بل لابد من العمل الدؤوب ليل نهار، والأخذ بأسباب النجاح مع الإلحاح في الدعاء إلى الله، كما أنه لابد لتحقيق ما تطمح إليه الأسرة في أولادها ومن تعول يجب على الأسرة البذل والعطاء من مالها وراحتها. لذلك لو نظرنا لوالدة الإمام أحمد نجد أنها دفعته منذ صغره وهو في سنوات طفولته الأولى عودته على المسجد فهو مصنع الرجال ومكان العبادة، مدرسة لتلقي العلم. يحكي الإمام أحمد قائلا: «كانت أمي توقظني وتحمّي لي الماء قبل صلاة الفجر وتلبسني أحسن الثياب وأنا ابن عشر سنين، ولصِغر سني كانت تتخمر وتتغطى بحجابها وتأخذني إلى المسجد، لأنه كان بعيداً، والطريق كان مظلماً، وعندما تتأكد أنني دخلت المسجد ترج للبيت لخوفها عليّ. وكانت أحيانا تبقى معه حتى منتصف النهار، وهو يتلقى العلم على يد كبار علماء عصره، فحفظ كتاب الله في صغره، ولم يتجاوز عمره عشر سنين. والسبب – بعد توفيق الله – هو

التشجيع الدائم من الأم، والعناية الكبيرة منها، ولهذا جعلت ابنها الإمام يواصل طريقه في تحصيل العلوم والفقه، ولما بلغ سن السادسة عشرة ورأت فيه النجابة وحب طلب العلم، طلبت منه أن يهاجر بحثاً عن طلب العلم وهي تتكفل بكل ما يحتاجه من نفقة، وما لا يستطيعه إلّا الموفقون من النساء وهو أن تتغلب الأم على عاطفتها وغريزتها وأمومتها، فلم توهن من عزيمة ابنها أو تخوفه من المجهول لبُعدِه عنها رغم أنه ابنها الوحيد، فما كان منه إلّا أن سلّمت أمرها وأمره إلى الله وحده يحدوها الأمل الكبير في ربها، بأن تراه من العلماء الكبار الذين يخدمون الإسلام والمسلمين، ويكون ذا شأن عظيم في بين أقرانه، والحق كان لها ما تمنت وعملت من أجله.

مضى الإمام أحمد في طريق العلم، ومن خلفه أمٌّ تقوم على رعايته وتشجعه وتسانده حتى أصبح أحد أعلام الدنيا وأئمة الإسلام.

وفاء الابن

لم ينسَ الإمام ما فعلته أمه معه وهو صغير، فبعد أن كَبُرَ وصار إمام الدنيا، كان عندما يجلس يحدث الناس بفضل أمه عليه وما قامت به لتربيته وإعداده ليصل إلى ما وصل إليه.

كان – رحمه الله – يقول : أمي هي التي حفظتني القرآن وعمري حينها عشر سنوات فلما بلغت السادسة عشرة من عمري قالت لي: اذهب في طلب الحديث فإن السفر في طلب الحديث هجرة إلى الله الواحد الأحد، وودعته عند السفر قائلة: يا بني! إن الله إذا استُودِع شيئاً لا يضيعه أبداً، وإني أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

لما عاد من رحلته في طلب العلم فرحت هذه الأم الصابرة بابنها بعودته كما أي أمّ، ليصبح الإمام أحمد بن حنبل من أئمة الفقه الإسلامي الأربعة المعروفين وصاحب أحد أهم كتب السنة المعروفة في الحديث الشريف، وهو كتاب مسند الإمام احمد ويتردد اسمه عقب آلاف الأحاديث النبوي ليكتب بعدها(رواه الإمام أحمد).

هكذا يتحدث الإمام أحمد بن حنبل عن أمه التي غرست فيه غراس الإيمان منذ الصغر ليصبح فيما بعد إمامًا لأهل السنة والجماعة؛ وليجمع بين علوم الشريعة وبين الزهد والورع، وليثبت بالتجربة العملية أن الزهاد والمتصوفة لا يرتقون مراتب الفضل إلا بعد أن يزينوا زهدهم بالعلم والفقه؛ حتى يعبدوا الله عز وجل على بصيرة، وبما شرع رسوله الكريم ولا يُحدثوا في الدين بدعًا نراها في زماننا ما أنزل الله بها من سلطان.

وعندما بلغ السبعين من العمر لم تنسه السنون بره بأمه وبأرحامها وأقاربها، بل لم يتوقف عن ثنائه عليها، ويحدث الناس عن أمه فيقول: رحم الله أمي، كلما تهيأت لصلاة الفجر تذكرتها، فقد كانت تجهز لي ثيابي ووضوئي وتقف على الباب حتى ترى الخيالة (شرطة الأمن) فإذا رأت الخيالة اطمأنت وأطلقتني ودفعت إليّ فطوري، وأوصتني بالدرس بعد الصلاة.

ومما ينسب إلى الإمام أحمد بن حنبل قوله: بر الوالدين كفارة الكبائر، وقد عاش حياته يترجم هذا القول إلى واقع من شدة بره بأمه وحبه لها. انظر إلى هذه الأم وحبها هذا المثال له ما وراءه من أن هذا الولد ملأ عليها الدنيا بعد موت زوجها، وملك شغاف قلبها.

أيتها الأم

الفرق بيننا وبين تلك الأمّ الفاضلة، أنها كانت ترى في ابنها خادمًا للدِّين والعلم، لا خادمًا لها هي وفقط حتى يجلس بجوارها. هذه الأم تحمّلت نار فراق ابنها، لا ليرجع إليها بمالٍ أو جاهٍ أو منصب، وإنما تحملت ألَمَ الفراق لترتويَ فيما بعد بما حمله من نور العلم الذي نفع به المسلمين إلى يومنا هذا. ولها أجرها وأجره وأجر كل مَن هداه الله بسببه أو تفقه في دين الله عن طريقه.

قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا» أخرجه مسلم.

وما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا»

وفي حديث أبي مسعود الأنصاري، يقول النبي ﷺ: «من دل على خير فله مثل أجر فاعله» أخرجهما مسلم في صحيحه.

أخواتي الفضليات.. ذاك نموذج لكنّ من نماذج كثيرة في تاريخ الإسلام إلى يومنا هذا، نماذج لأمهات أدركن حقيقة مسؤولياتهنّ، وقوّة إيمانهن بما أعطاهن الله من نعمة الأبناء والتي قد حُرم منها الكثير، نماذج لمن

أدركن ما لم يدركه كثيرون من الباحثين التربويين والمربّين المعاصرين الذين نسوا أو تناسوا قول النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالرجل راع في أهل بيته ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، ثم، قال: ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» أخرجه الإمام البخاري في صحيحه. فلا تسمحي لنفسك أختاه أن يربّى أبناؤك تربية غير صالحة غير تربية أمثال هذه الأمهات الفاضلات، والقدوات الصَّالحات. لا تتركوا أبناءكم للئام الناس يربوهم عن طريق الفضائيات الساقطة، والمواقع المشبوهة.

إمام أهل الحديث

في سنة 194هـ شهدتْ مدينةُ بخاري ولادةَ طفلٍ، فرِحَ به أبوه وسمّاه «محمداً» تبرّكاً باسمِ النبي صلى الله عليه وسلم. هذا الطفل هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه، البخاري الحافظ إمام أهل الحديث في زمانه. مات أبوه وهو صغير، فنشأ في حجر أمه، فألهمه الله حفظ الحديث وهو في الكُتّاب، وقرأ الكتب المشهورة وهو ابن ست عشرة سنة، حتى قيل إنه كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سردًا.

ورَعُ أبّ

وكان هذا الأب «إسماعيل» والد الإمام البخاري رجلاً صالحاً زاهداً ورِعاً، حجَّ إلى بيت الله من حرّ ماله وحلاله، وزار مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأى الإمام مالك إمام دار الهجرة، وروى عنه بعضَ الأحاديث، وقابل كثير من علماء الحديث كابن المبارك وغيره. ولم يلبثْ أنْ أدركهُ الموتُ قبل أنْ يشبَّ ابنه «محمد» فقال – وهو على فراش الموت – (إنّه لا يعلم في مالهِ درهماً مِنْ حرام، ولا درهماً مِنْ شبهة). وهذه الكلمة إن دلّت فإنما تدل على تديُّنٍ صادقٍ، وورعٍ وزهده، وتوفي الوالد وهو مطمئنٌ على أجسادٍ نبتتْ من الحلال أنَّ اللهَ لنْ يضيِّعَها.

أمٌّ ونِعم الأمّ

للأمهات دورهن البارز في إخراج الكثير من أئمة المسلمين، والكثير من العلماء والفقهاء، وهذا الدور عظيم للغاية في التنشئة على حب العلم، والتربية وحسن التفكر في مصير أبنائهن، ولهن جميعًا البصمات الواضحة في التأثير بحياة العديد من علماء وأئمة المسلمين، والتي لا ينكرها إلا جاحد، ومن هؤلاء والدة الإمام البخاري رحمه الله.

واحتضنتْ هذه الزوجةُ المباركة ابنيها (محمد، وأخوه الأكبر أحمد)، وقامتْ عليهما أحسنَ قيام، وربّتهما أحسن تربية، لكن دوام الحال من المحال فقد حدث ما كدَّرَ صفو عيشها، وأرَّق ليلَها، وأقضّ مضجعها، وأطال نهارها، وزاد همّها، فقد ذهبَ بصرُ ابنها الصغير «محمد» البخاري، وأصبح لا يرى شيئاً، واسودت الدنيا في وجهه، وما مِنْ شيءٍ أقسى على قلب الأمِّ مِنْ مرضٍ ولو كان هذا المرض عارضاً ينزلُ بأحد أبنائها، فكيف بعلةٍ كهذه تجعل ابنها يحتاج لمن يعوله في كل شيء تقريبا، وقد تلازمُه طول حياته، وقد تصرفُهُ عن طلب العلم، كما تحولُ هذه العلّة بينه وبين حريةِ الحركة، ولذةِ الحياة، وجمالِ الدنيا.

ماذا عساها أن تصنعُ تلك الأم، وابنها محمدٌ جالسٌ أمامها لا يكاد يتحرك إلّا بمساعدة أخر، وإن أراد القيام تعثّر في مشيته، وأصبح محتاجاً لمساعدة الغير في شؤونه كلها! ماذا تصنع؟!

سلاح الدعاء

بعد كل هذه الأمور التي تراها الأمّ ويدور في ذهنها قلة حيلتها وما تدري ماذا تفعل؟ هنا ألهمها الله الكريمُ الذي لا تُغلقُ أبوابُه في وجه عباده عُصاة أو طائعين، ولا يقطع رجاء مَن يرجوه، ولا يُسْدلُ حجابُه أمام طالبيه، ولا تنقطعُ عطاياه عن عباده. ألهمها – سبحانه وتعالى – الدعاء السلاح الذي لا يخيب من يتمسك به، ألهمها أنْ تلجأ إليه، وتتضرع له، وتتوسل بكرمه وجوده، فالدعاء عبادة من أجلّ العبادات.
فعن النعمان بن بشير قال سمعت النبي يقول « الدعاء هو العبادة « أخرجه الترمذي وصححه الألباني.
وعن ابن عباس قال: قال رسول الله «أفضل العبادة الدعاء» صححه الشيخ الألباني.
وعن أبي هريرة عن النبي قال « ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء» أخرجه الترمذي وصححه الشيخ الألباني.
واستجابت الأمُّ لنداء قلبها، وإلهام ربِّها لها، فكانت إذا دخل الليلُ وأرخى أستارَه وسدوله، وأخلد الناس إلى النوم، وحلَّ السكونُ على الجميع، تقومُ هي للتضرع لربها، فتتوضأ وتقفُ بين يدي مولاها باكيةً داعيةً شاكيةً إليه وحده ما نزَلَ بابنها وفلذة كبدها «محمد» مِنْ علّة، وما نزَلَ بقلبها مِن غمٍّ، وما نزَلَ ببيتها مِنْ همّ وحُزن، ولا يقدر على إزاحة كلّ هذا إلّا هو وحده – سبحانه وتعالى –، دعت الله وهي موقنة بأنه سيستجيب لها ويكشف ما بها من ضرّ. أخرج الحاكم في صحيحه

من حديث أبي هريرة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «ادعُوا الله وأنتم موقنون بالإجابة».

واستمرتْ على ذلك مدةً طويلة تدعُ الله أن يُذهب ما بابنها من مرض، وما عندها من همّ وغمّ، حتى صارت هذه الوقفة بين يدي الله ديدنها تبثُّ له شكواها، وترفع إليه يداها، وتطرق بابَهُ الكريم، وبابِ الكريم إذا طُرِقَ يوشك أن يُفتح لطارقه.

وذات ليلةٍ قامتْ أمُّ محمد فصلَّتْ ودعتْ، وأكثرت، وألحّتْ في الدعاء، لكن أدركتها سِنةٌ من النوم، وإذا بها ترى سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام يقولُ لها:(يا هذه، قد ردَّ الله على ابنك بصره بكثرة دعائك) فاستيقظتْ مفزوعة مستبشرة بما رأت وهي تعلم أن ربها لا يخيب رجاها، قامت من نومها وقلبُها يخفقُ من هذه الرؤيا الطيبة، والبِشارة المنتظرة، وجلستْ تنتظرُ الصباحَ بفارِغ الصبر، متى يأتي الفجر لأرى ما بوجه ابني من الفرحة؟.

وأُذِّنَ لصلاة الفجر، وأيقظتْ الأمُّ ولديها «محمد، وأحمد» لصلاة الفجر، وهنا كانت المفاجأة الطيبة التي تنتظرها، رأتْ بحمد الله صدقَ الرؤيا التي رأتها.. الحمد لله لقد أبصر ابنيَ «محمد» وقام يتوضأ وحده بدون مساعدة من أحد، بكت الأمُّ من الفرحة وسجدتْ لله شكراً، تبلّلت مصلاها بدموعها شاكرة ربها..

لم تكتف الأم بهذا بل كأنها أرادتْ أنْ تشكر اللهَ عند بيته الحرام بمكة المكرمة، فأخذتْ ولديها وانطلقوا جميعا إلى مكة، فحجُّوا ذلك العام وكان هذا سنة (**210**هـ) وكان عُمْر البخاري وقتها **16** سنة، رجعت الأمُّ وابنه أحمدُ إلى بخاري، وتركت ابنها «محمد» هناك يطلبُ العلم وهذا أعظم الشكر.

وعلى ما يبدو؛ فإن أمه ربما كانت هي صاحبة هذه الفكرة، في أن يحج، ثم يظل هناك ليأخذ العلم بلسان العرب ومن منبعه ورافده الأول.. فهي بصدد إعداده لا ليرجع فيعلم قومه وأهل بلده فقط، وإنما ليعود فيُعلِّم الدنيا..

وفي الحرمين الشريفين بين مكة والمدينة، كانت بداية رحلة البخاري في طلب العلم، وقد ظل بهما ستة أعوام، ينهل من الشيوخ والعلماء، انطلق بعدها متنقلاً بين حواضر العالم الإسلامي.. يجالس العلماء ويحاور المحدِّثين، ويجمع الحديث، ويتكبد مشاق السفر والانتقال.. لم يترك حاضرة من حواضر العلم إلا نزل بها وروى عن شيوخها، وربما حلَّ بالبلد الواحد مرات عديدة، يغادره ثم يعود إليه مرة أخرى..

وكان من الحواضر الإسلامية التي نهل منها وأخذ من شيوخها غير مكة والمدينة، بغداد وواسط، والبصرة، والكوفة، ودمشق، وقيسارية، وعسقلان، وخراسان، وبلخ، ونيسابور، ومرو، وهراة، ومصر، وغيرها..

البخاري.. تربيةُ أمٍّ صالحة

وكان قدر الله أن يموت والد البخاري وهو مازال طفلاً صغيرًا وقيل قبل أن يولد، وتشاء إرادة الله أن ينشأ يتيمًا في حجر أمه، والتي قامت على تربيته أحسن تربية.. وأدّت الأمانة أحسن أداء.. لتُري أمهات المسلمين جميعا – والأرامل منهن خاصة– كيف تكون تربية الأبناء.. وما هو دور الأم في جهادها لرفعة الأمة والنهوض بها.. عن طريق حُسن تربية أبنائها؟!

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد أنعم الله عز وجل عليه وهو مازال في طفولته بالنجابة والذكاء، ووهبه سبحانه ذاكرةً قويَّة، قلَّما وهبها غيرَه، حتى كان آية في الحفظ..

وقد زادت أمه من العناية به، وتعهدته بالرعاية والتعليم والصلاح، فكانت تدفعه إلى العلم وتحببه فيه، وتزين له أبواب الخير.. فنشأ البخاريُّ مستقيمَ النفس، متين الخلق، محبًا للعلم، مقبلاً على طاعة ربه.. حتى ما كاد يتم العاشرة إلا وكان قد حفظ القرآن الكريم، وبدأ يتردد على الشيوخ والمحدثين..

يقول محمد بن أبي حاتم: قلت لأبي عبد الله (البخاري): كيف كان بدء أمرك؟ قال: أُلهِمتُ حفظ الحديث وأنا في المكتب (الكُتَّاب). فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكُتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يومًا فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم. فقلت له: إن أبا الزبير لم يروِ

عن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم (أصلح) كتابه، وقال: صدقت. فقيل للبخاري: ابن كم كنت حين رددت عليه؟ قال: ابن إحدى عشرة سنة!!

وصل في العلم درجة كبيرة حتى وُجد في الناس مَنْ يودُّ أنْ يهبه مِنْ عمره، منهم العالم الجليل يحيى بن جعفر البيكندي يقولُ: (لو قدرتُ أن أزيدَ مِن عمري في عمر محمد بن إسماعيل لفعلتُ، فإنَّ موتي يكون موت رجل واحد، وموت محمد بن إسماعيل فيه ذهابُ العلم)

وفي مثال يدل على عجب أقرانه منه وهو خارج موطنه، يقول محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخاري يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب، حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يومًا بعد ستة عشر يومًا: إنكما قد أكثرتما عليّ وألحتما، فاعرضا عليّ ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر قلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا وأضيع أيامي؟! فعرفنا أنه لا يتقدمه أحد. وعن رحلاته في طلب العلم يقول البخاري: «دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد» وهكذا كانت ثمرات تربية الأم الصالحة، أن خرّجت لنا هذا العالِم النحرير الذي له فضل على أمة الإسلام جميعا.

رحم اللهُ محمدَ بن إسماعيل البخاري، ورحم أباهُ الذي لم يُطعِمْه إلا حلالاً، ورحم أُمَّهُ التي ربَّت فأحسنت التربية، وإليها يعودُ الفضلُ في عودة النور إلى بصر «محمد»، فملأ الدنيا نوراً وعلما.

شيخ الإسلام ابن تيمية

هو أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، الحَرَّاني، الدمشقي. ولد بِحَرَّان بدمشق في (الاثنين 10 من ربيع الأول 661هـ)، نشأ في بيت علمٍ وفقهٍ ودين، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير؛ فجده الأعلى (الرابع) محمد بن الخضر، ومنهم عبد الحليم بن محمد ابن تيمية، وعبد الغني بن محمد ابن تيمية، وجده الأدنى عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية مجد الدين أبو البركات، وأبوه عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، وأخوه عبد الرحمن وغيرهم.

وفي هذه البيت العامر بالعلم والعلماء، كانت نشأة صاحبنا شيخ الإسلام، ولما بلغ ابن تيمية السابعة انتقل مع والده إلى دمشق؛ هربًا من التتار، وبدأ طلب العلم أولاً على أبيه وعلماء دمشق، فحفظ القرآن صغيرًا، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وعُرِفَ بالذكاء وقوة الحفظ والنَّجابة منذ صغره، ثم توسَّع في دراسة العلوم والتبحر فيها، وقبل بلوغه الثلاثين اجتمعت فيه صفات المجتهد وشروط الاجتهاد، فصار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة.

رسالة أم.. تصنع عالِم..

«والله لمثل هذا ربيتك، ولخدمة الإسلام والمسلمين نذرتك، وعلى شرائع الدين علمتك، ولا تظننَّ يا ولدي أن قربك مني أحب إليَّ من قربك من دينك وخدمتك للإسلام والمسلمين في شتّى الأمصار، بل يا ولدي إنَّ غاية رضائي عليك لا يكون إلا بقدر ما تقدمه لدينك وللمسلمين، وإني يا ولدي لن أسألك غداً أمام الله عن بعدك عني، لأني أعلم أين، وفيم أنت، ولكن يا أحمد سأسألك أمام الله وأحاسبك إن قصّرت في خدمة دين الله، وخدمة أتباعه من المسلمين».

كانت هذه هي رسالة والدة شيخ الإسلام ابن تيمية إليه، ترد عليه بعد أن أرسل يعتذر لها تأخرِ عنها وأنه لن يأتيها في القريب لإقامته بمصر، لأنه يرى ذلك أمراً ضروريا لتعليم الناس الدين. أي امرأة بقلب رجل هي؟!

إننا لو نظرنا إلي الأنفس، لوجدنا أن سريرة الإنسان تورث صاحبها عِزاً بعِزّها وذلاً بذلها، فلا تحسبن بأن تلك الكلمات وليدة اللحظة، إنما هي ثمرة لسريرة نقية، عزيزة بالله، لم نر منها إلا الصورة الأخيرة، ولو نتدبر كلماتها لعلمنا بأن ليس أكمل لإحداهن على الإطلاق من أن تُخلق بمثل هذا القلب الذي ينبض بين أضلعها بحبها لابنها وحبها لتعليم الناس على يده أشد وأفضل من أ يُقيم بجوارها ليخدمها هي فقط، وهي التي كانت تربّيه وتُعده دوماً لذلك فأين بنو جنسها منها؟؟ من المعروف والمقرر عقلا ونقلا أن الحق حين يستقر بقلب صاحبه فإنه

سيورثه جرأةً وثباتاً وإقداما وشجاعة، وصاحب هذا القلب يرزقه الله عزمة لا تفتر، وعقل لا ينضب، وحُجّة بالغة، ولسان لا ينعقد، وقناة لا تلين، وقلب قوي، ونور لا ينطفئ .. فلا يهتز لصاحبه يقين .. ولا يشوش له فكر.

هذه الرسالة وأمثال هذه الكلمات كان لها أثر كبير جعلت من هذا الابن أعلم علماء عصر، له مصنفات كثيرة تكاد تصل للألف مصنف، وقد حاولت بعض المصادر استقصاء مصنفات الشيخ، أوصلها البعض إلى (702 مصنفًا)، وآخرون أوصلوها إلى (923 مصنفًا). كل هذه المصنفات في ميزان حسنات هذه الأسرة التي كانت سببا في تخريج هذا العالِم الفذّ، وعلى رأسها الأمّ التي ربت فأحسنت.

أختٌ خرّجت إمام

هي امرأة عاشت حياة فريدة من بدايتها إلى نهايتها حتَّى في اسمها –ست الركب– عمرها لم يتجاوز 28 عاماً فقط، ومع ذلك استطاعت أن تصنع من شقيقها أعلم علماء زمانه.

وَمَنْ يتهيب صُعُودَ الجِبَالِ *** يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَر

إنَّ تجربة هذه المرأة في صناعة أخيها وشقيقها تجربة ملهمة لكلّ أخت تظن أن متطلبات الوظيفة لديها كثيرة، ومحفزة لكلِّ أمّ تظن أنها غير مؤهلة لذلك، أو أنَّ أعباء المنزل كثيرة، ونموذج مشرق لكل بنت تعتقد أنَّها لا تزال صغيرة أو أن وقتها ضيّق، ومعلم لكل زوجة تقول إن مسؤولية الحياة الزوجية عندها كبيرة، ومهمة الأطفال ثقيلة، فكيف تربي الأبناء وكيف تهتم بهم، إلّا أن هذه المرأة أخرست الجميع ولم تبقي لهم حجة ولا متكئاً فهي امرأة لم تكن ظروفها جيّدة بالكلية، وإنَّما كانت أيضاً لها مشاكلها الحياتية، ومشاغلها اليومية، ومسؤولياتها المنزلية، ومع ذلك أصرَّت وصبرت وأدارت طاقتها ووقتها بذكاء، فلم تقصّر في حقِّ زوجها وأطفالها، ووجدت فائضاً من الوقت والحنان والاهتمام تُسبغه على أخيها الصَّغير الذي تربيه بعد أبيها وأمها.

ستُّ الرَّكْب..

هذه المرأة التقية الصالحة أسمها ست الركب بنت عليّ بن محمد العسقلانية.

كان لتسميتها بهذا الاسم الغريب قصة طريفة، لما عزم أبوها عليّ بن حجر على الحج وخرج وأهله من مصر مع قافلة الحجاج، وهم في طريقهم للحج فاجأ المخاض والدتها ووضعتها أثناء الرحلة، أراد أن يسمّيها والدها فقُدّر له أن يسميها ست الركب، وأراد بذلك أنها ولدت في هذا الركب المبارك وهي سيدة هذا الركب من حيث البراءة التي للأطفال، وكنّاها أبوها بأم محمد، وقد نشأت ست الركب في كنف أبوين كريمين محبَيْن للعلم وأهله، حيث كان والدها نور الدين علي بن محمد بن محمد بن حجر العسقلاني، أحد طلاب العلم المهتمين به المشتغلين فيه، لهذا حرص أبوها على تعليم ابنته هذه العلوم الشرعية، فكان أبوها كثيراً ما يصحبها إلى حِلقِ العلم ودروس العلماء، وهي وقتئذٍ بُنية صغيرة.

إلا أن يشاء الله سبحانه وتعالى لهذا الوالد العالم أن يترك ابنته وهي صغيرة لم تنهل من علمه ولا حنانه، وما زالت متعطشة إلى علمه وبره، فوافته المنية، وعمرها لم يتجاوز سبع سنين.

حبّ العلم بالوراثة

ولكن نشأتها المحبة للعلم والذي غرسه فيها أبوها هذا الأب الفاضل، جعلها تُقبل على القرآن حفظاً ومدارسةً، ويهفو قلبها إلى مختلف العلوم، فأخذت تنهل من معينها كالظامئ الذي لا يرتوي، وتقطف من أزهارها، وما لبث هذا الشغف العميق وحب العلم إلا أن انتقل إلى شقيقها الصغير أحمد الذي لم يكن يتجاوز وقتها الرابعة من عمره حين توفي عنه والده، فاهتمت به أخته هذه – وهي ما زالت فتاة صغيرة السن – اهتماماً عظيماً، وإذا أراد الله شيئا هيئ له الأسباب كما يقولون، فأخذت ست الركب على عاتقها أن تغرس في أخيها أحمد بن حجر العسقلاني حب العلم والعلماء، وذلك أسوة بوالديهما، حتى أصبح علماً من أعلام الإسلام وهو ما زال صغيرا، وأضحى بعد ذلك إمام الحفاظ والمحدثين في زمانه، إنه الإمام العَلَم الفذّ ابن حجر العسقلاني، وكان كثيراً ما يشيد بدور أخته ست الركْب في حُسن تربيته وتعليمه، فكان يقول عنها:» إنها أمي بعد أمي.. كانت بي برة رفيقة محسنة، فلقد انتفعت بها وبآدابها مع صغر سنّها».

كانت هذه الأخت العالِمة برها، المحبة لدينها، كانت إلى جوار علمها معروفة كذلك بالذكاء، وحضور البديهة، وكثرة القراءة والمطالعة في أمهات الكتب التي أُشتهر بها عصرها، حتى قال عنها أخوها الإمام ابن حجر العسقلاني: «كانت قارئة كاتبة أعجوبة في الذكاء» وكما أنها كانت المربية الفاضلة والمعلمة الماهرة في بيت أبيها، فإنها كانت كذلك

في بيت زوجها شمس الدين محمد بن السراج بن عبد العزيز الخروبي الذي رُزقت منه بولدين، فأحسنت إليهما أيّما إحسان، واهتمّت بتثقيفهما أحسن تثقيف، فنشأ أولادها على حب العلم ومعرفة فضله، وبرَعَا فيه وأجاز لهما جماعة من أعيان عصرهما.

لكن ليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ولا كلّ ما نحبه يأتينا على ما نحب، فوافتها المنية وهي في ريعان الشباب لم تتجاوز بعد الثلاثين من عمرها، وذلك سنة سبعمائة وتسع وثمانين من الهجرة.

تربية بالقدوة

ست الركب أخت الإمام ابن حجر كانت منذ بدايتها، فقد كانت ذكية بالفطرة بتعرف عصرنا أنها نابغة أو موهوبة جداً، فما كان من والدها إلّا أن يُوليها اهتمام كبيرا، ورعاية خاصة وصلت إلى حدِّ أنَّه كان يأخذها معه إلى المسجد، وهي دون سن العاشرة، وهذه رعاية ما بعدها رعاية وهذا ما نحتاجه الآن في زماننا تجاه أبنائنا.

لنا أن نتخيّل الأب وهو يصطحب معه ابنته إلى درس في المسجد في حضرة العلماء، لأنَّها وصلت إلى مستوى من الذكاء والاستعداد النفسي الذي وصلت إليه عن طريق التحفيز والترغيب لكي تحب العلم ومن ثم تتعلم، وما أجميل أن تكون العلاقة بين الأبناء والآباء هي علاقة صداقة وحُبّ داخل البيت وخارجه، فيصحب الأب أو الأم الأبناء لا في المناسبات أو الزيارات فحسب، بل حتى في حركتهما المعتادة في المجتمع.

رحل الوالد الذي كان الدَّاعم الحقيقي والصديق الوفي لأبنائه، لكنه ترك لأبنائه أفضل شيء يعينهم على العلم، ألا وهي المكتبة المنزلية الخاصة به، والتي جمع فيها الكتب القيّمة، وبالتالي فإنَّ والدهم لم يترك مكتبة منزلية فحسب، وإنما ترك لهم ثروة علمية ضخمة.

ولم تكتف ست الركب في مشروع تنمية مواهبها وقدراتها بالكتب، وإنَّما احتكت بأهل العلم الذين كانوا في بلدها مصر أو في بلدان أخرى، فقد كانت صاحبة حركة دؤوبة، وعزيمة شابة لا تفتر من أجل تحقق

طموحها في أن تصبح أفضل أقرانها، وصانعة عالِمٍ فريدة، ولهذا –بفضل الله– قد حققت إنجازات كبيرة سواء على المستوى الشخصي لنفسها، أو على مستوى أسرتها بإعالتها لأخيها أحمد، أو زوجها وأولادها، فقد وفقها الله أن كوَّنت أسرة مثالية ناجحة بالمقاييس الاجتماعية أو الدينية والأسرية، فقد كانت تعرف كيف تدير وقتها وأمورها بذكاء وفطنة.

ولو لم يكن لها إنجاز سوى إمام الدنيا أخوها الإمام ابن حجر العسقلاني لكفاها، كيف لا وهذا العَلَم ابن حجر يقول عنها مادحا داعيا لها «لقد كانت بي برّة رفيقة محسنة فجزاها الله عنّي خيراً، فلقد انتفعت بها وبأدبها مع صغر سنها».

أين أثرُك..

هناك من البشر مَن يُعمّر ويعيش طويلا ويموت ولا يشعر أحد به لا وجودا ولا عدما، حتى أقرب الناس له، وهناك من يعيش في الدنيا يترك بصمة له في كل مكان وفي كل قلب وفي كل مجال وعمل، وعندما يرحل يفتقده الناس جميعا البعيد قبل القريب، تفيض عيون الناس بالدموع عليه، وقرائح المحبّين المقرّبين منه بأعذب كلمات الرِّثاء والثناء، والله تعالى يقول حكاية عن سيدنا إبراهيم: ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: 84]. فأجاب الله سؤْله بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الصافات: 108]، قال جمهور المفسرين: «وتركنا ثناء حسنًا عليه»، ثم عمَّم فضل الله على خليله، فكان له الذِّكر الطيب والثناء الحسن، ولذرِّيته كذلك؛ إسحاق ويعقوب، قال – سبحانه –: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 50]، قال القرطبي: «أيْ: أثنينا عليهم ثناء حسنًا». وأخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (مُرَّ بجنازةٍ فأُثْنِيَ عليها خيرًا، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم –: «وجبت وجبت وجبت»، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شرًّا، فقال – صلى الله عليه وسلم –: «وجبت وجبت وجبت» قال عمر فِدًى لك أبي وأمي، مُر بجنازة فأُثني عليها خير، فقلت: وجبت وجبت وجبت، ومُرّ بجنازة فأُثني عليها شرًّا، فقلت: وجبت وجبت وجبت، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: من أثنيتم عليه خيرًا وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شرًّا، وجبت له النار، أنتم

شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض). وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أنتم شهداء الله في الأرض، والملائكة شهداء الله في السماء» صححه الألباني.

من هؤلاء الذين بكتهم الدنيا لما تركوه من أثر طيب وذِكرٍ حسن، فلما رحلت ست الركب وتركت مثل هذا العالم ابن حجر، تألم لفراقها ألماً شديداً، وكتب يرثيها وكأنَّه يرثي أمه، لأنَّها كانت أمَّه بالفعل فقال:

بكيت على تلك الشمائـــــل غالها
كيف الثرى بعد التنعم واللطـف
بكيت على حلـــــم وعلـم وعفّـــة
يقارن مع عزّ الهدى هــزَّة الظرف
بكيت على غصن قد اجتث أصله
ولم أجن من أزهـــاره ثمر القطـف

ولم يكن ابن حجر وحده الذي رثى أخته ست الركب، وإنَّما رثاها عدد من نخبة المجتمع وعلماؤه الذين انتفعوا بوجودها، وسبحان الله! فكأن حب الناس هو مؤشرٌ صادق تجاه أيّ إنسانٍ يتجلى ويظهر هذا الحب والأثر الصالح في مشهد جنازته، فالناس حين يغيب هذا الرجل الصالح عن دنياهم، فقدره عند الناس يكون بحسب تفاعله معهم، وعطائه للمجتمع الذي يعيش فيه عندما يكون موجودا بينهم، وهذا ما حدث مع ست الركب، فقد حضر جنازتها عدد كبير، شمل تلامذتها وأستاذتها، وكل من انتفع بعلمها وأدبها، وعلى رأسهم صنيعتها أمير الحديث وشقيقها ابن حجر الذي كان من أكثر الناس انتفاعا بها.

ابن حجر صناعة أخته

هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن حجر الكناني العسقلاني الشافعي المصري القاهري المولد والمنشأ والدار والوفاة. المعروف بالحافظ ابن حجر العسقلاني.

مما يُذكر أن ابن حجر –رحمه الله – كان له أخ توفي صغيرا، فحزن عليه والده حزنا شديدا، وذكر ابن حجر –رحمه الله– أن والده حضر إلى الشيخ يحيى الصنافيري أحد مشايخ عصره، فبشَّره بأن الله تعالى سيخلف عليه غيره ويعمره، فكان مولد ابن حجر– رحمه الله– بعد ذلك بقليل. وذكر السخاوي أن الشيخ الصنافيري بشَّر والد ابن حجر –رحمه الله– بقوله: «يخرج من ظهرك عالمٌ يملأ الأرض علمًا» وأكمل ابن حجر حفظه للقرآن على يد صدر الدين السَّفطي المقرئ، وهو ابن تسع سنين، وصلى بالناس التراويح في هذه السنّ، وهذا يدل على بوادر نبوغ الحافظ ابن حجر المبكرة، والتي تتمثل في إتمامه القرآن صغيرا وإمامته للناس وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وهو سن ربما يعتري الأطفال فيه رهبة وخوفا، إلا أن نبوغ الطفل الصغير وذكائه وحسن تربيته ونشأته أهَّلَته لأن يكون كذلك في الثبات.

ثم حفظ عمدة الأحكام للمقدسي وألفية العراقي في الحديث والحاوي الصغير للقزويني ومختصر ابن الحاجب في أصول الفقه ومنهج الأصول للبيضاوي، وتميَّز ببين أقرانه بقوة الحفظ، فكان يحفظ الصحيفة من الحاوي الصغير من مرتين الأولى تصحيحا والثانية قراءة في نفسه ثم

يعرضها حفظا في الثالثة، ويذكر السخاوي أن حفظ ابن حجر –رحمه الله– لم يكن على طريقة الأطفال في المدرسة، وإنما كان حفظه تأمُّلا على طريقة الأذكياء.

فكان أن تتلمذ على خيرة علماء عصره، ويذكر السيوطي أن ابن حجر –رحمه الله– لازم شيخه الحافظ أبا الفضل العراقي عشر سنين، وبرع في الحديث وتقدم في جميع فنونه، وحُكيَ أنه شرب ماء زمزم ليصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ، فبلغها وزاد عليها.

وهكذا فإن ابن حجر العسقلاني – رحمه الله – لم يبلغ من العمر خمسة وعشرين سنة حتى جمع من العلوم ما لم يجمعه أحد في عصره، في علوم القرآن والتفسير والفقه واللغة والأدب والتاريخ والحديث والنحو، وجمع بين علوم النقل والعقل، وأخذ عن عدد جمّ من المتخصصين في علوم المعارف كلها، ولا يتوفر ذلك إلا لشاب ذو همة عالية وعزيمة قوية ورغبة حقيقية في طلب العلم والانتفاع به، يقول تلميذه السخاوي، واصفًا حال شيخه ابن حجر: «فجدّ بهمة وافرة وفكرة سليمة باهرة، في طلب العلوم منقولها ومعقولها، حتى بلغ الغاية القصوى، وصار كلامه مقبولا عند أرباب سائر الطوائف، لا يعدون مقالته لشدة ذكائه وقوة باعه رحمه الله تعالى.

وكل هذا في ميزان حسنات والديه وأخته التي كان لها الأثر الأكبر في وصوله لما وصل إليه.

نهاية المطاف

بعد أن طُفنا سويا مع قصص واقعية كان أبطالها نساء، هؤلاء النسوة أخرجوا لنا أجيالا كانوا شموسا أناروا للناس جميعا دينهم ودنياهم، كانوا متمثلين قوله -صلى الله عليه وسلم- كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فأدوا الأمانة كاملة بلا نقصان بكل ما استطاعوا وبكل ما أوتوا، والله – سبحانه وتعالى – لا يضيع أجر المحسنين، فلم يضيعهم الله ولا من يعولوا في الدنيا، ولن يضيعهم الله في الآخرة، رأوا ثمرة كدّهم وكدحهم مع أبنائهم في الدنيا، فهان عليهم كل شيء من تعب وسهر ونفقة، والله عوضهم بأفضل مما يطمحون إليه، بصلاح أولادهم وقرّ أعينهم بهم.

أختم هنا بقصة رجل وليس امرأة هذا الرجل كان سببا في ضياع دولة بكاملها، بسبب ركونه للدنيا، وانشغاله بالتوافه والشهوات والملذات، فكان سببا أن خرّج جيلا لا يعرف معروفا ولا يُنكر منكرا، جيلا انشغل بسفاسف الأمور عن معاليها، جيلا كل همّه لبس ثياب (الموضة) التي يصنعها التافهون ليشغلوا الشباب عما أوكلت إليهم من مهام، كل همّهم كيف أحلق شعري كما يحلقه الآخرون، كيف أتكلم مع الفتيات الأجنبيات، وما إلى هذه الأمور التي تُفسد المجتمعات ولا تُصلحها.

زرياب ... أسقط الأندلس

– من هو زرياب؟

– زرياب هو أبو الحسن علي بن نافع الموصلي ولد في بغداد سنة 173هـ. وتوفي بالأندلس سنة 243هـ. كان عبدا أسمر البشرة عذب الصوت، فلقبه أهل بغداد بـ (زرياب) وهو أحد أنواع الطيور السمراء ذات الصوت الجميل.

– نشأ في العراق في العصر العباسي الأول، ثم الحرب بين الأمين والمأمون بعد موت والدهم هارون الرشيد فهرب من بغداد، وأقام في تونس أيام حكم الأغالبة ووصل للبلاط هناك وكان يغنّي لهم.

– سمع به عبد الرحمن الأوسط الخليفة الأموي بقرطبة ببلاد الأندلس فطلبه ليقم في قرطبة، وعرض عليه الخليفة قصراً وراتباً شهرياً كبيرا، وإذا فسدت فطرة الولاة فسدت بفسادهم الرّعية، قال حجة الإسلام أبي حامد الغزّالي (وإنما فسدت الرعية بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء. فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك خوفًا من إنكارهم.» وهذا ما حدث في الواقع، فبعد أن دخل زرياب (المغنّي المشهور) بلاد الأندلس، قرّبه الخليفة الأموي حتى أصبح من حاشية الخليفة، وغنّى بحضرته وأمام حاشيته، فلما سمعه الخليفة شغف به وأدناه منه، ثم اشتهر أمره بعد ذلك في بلاد الأندلس وسحر أهلها بحسن صوته، ولم يكتفِ بهذا فقط من فساد وإفساد، بل بدأ يؤسس لأول

مدرسة في بلاد المسلمين وقتها وذلك لتعليم الشباب علم الموسيقى وقواعدها والغناء وأساليبه، والله إذا أراد شيئا هيئ له الأسباب.

– كان مما قام به زرياب لإفساد المجتمع أنه نقل الكثير مما يسمى بالصور الحضارية التي كانت عند بعض أهل المشرق والتي كانت في بعض قصور العباسيّين من المترفين، حتى تكون بين الملوك وعامة الناس في الأندلس.

– زرياب هذا كان من القلائل الذين كانوا سببا في ضياع قطاعٍ كبير من الشباب في الأندلس، فقد زين لهم ما يسمّى الآن (بالموضة) أو (الإتيكيت) في كل شيء حتى الملبس له تفصيل وتزيين، كذلك في كيفية تناول الطعام أدخل زرياب إلى الأندلس وجبات الطعام الثلاثية الأطباق، وهذه الوجبات تبدأ مثلا بالحساء (الشوربة)، ثم يتبعها الطبق الرئيسي، وهو من اللحم، أو الطيور، أو السمك، ثم تختتم بالفواكه والمكسرات، وكان لزرياب هذا ذوقه الخاص في تنسيق الموائد وتنظيمها واتخاذ الأكواب من الزجاج الرقيق بدلا من المعادن مما لم يكن معروفا آنذاك.

– كما ابتدع للكبراء والأمراء هناك ما عرف بتنظيم الموائد وتنسيقها من حيث ترتيب الصحون واتخاذ السكاكين والشوك والملاعق لكل أكل معين نوعٍ من الصحون أو الملاعق والشوك والسكاكين، كما ابتدع لهم طريقة الكلام أثناء الأكل مما يلفت الأنظار إلى طريقته هذه في الكلام أو كيفية الجلوس إلى المائدة، وكيف يأكل وكيف يتحدث أو يشرب بطريقة خاصة على الأكل، وكان يضع على مائدته الكثير من المناديل، هذه لليدين وهذا للشفتين، وهذا للجبهة وهذا للعنق إلى غير

ذلك من الإسراف والتبذير الذي لم يكن معهودا عندهم، مما أخرج جيلا كل همه كيفية اللبس، وطريقة الأكل، وما يناسب الشباب من الوقفة الفلانية التي تكون سببا في جذب الفتيات، وكأنه في عصرنا الآن. وقد استحسن الناس ذوقه حتى في الأطعمة، فدلهم على صنوف الأكل الفخم الغالي وكيفية طهيه بطريقة خاصة، والمتبقي لا يُأكل مرة أخرى بل مصيره القمامة أو في أحسن الأحوال للغلمان والجواري أو الحيوانات، مما جعل الناس في دُعَةٍ واختيال، واختلت موازين القِيم عند الناس حتى صار الكثير يألفون ما هم عليه من التبذير والخُيلاء.

– مما ابتدعه زرياب هذا أنه كان أول من لفت أنظار النساء إلى وجوب اختلاف لون وحجم مناديلهن مع ما يتوافق مع اللبس والحذاء ولابد أن تكون المناديل معطرة فالمرأة ليست أقل من الرجل في مثل هذه الأمور، وهي كلمة حق أُريد بها باطل والعياذ بالله.

– وجد زرياب أيضا أهل الأندلس لا يهتمون بحلاقة ولا تهذيب الشعر فعلمهم قصة الشعر التي تليق مع كل هيئة ومع كل لبس سواء الرجال والنساء.

– كما لاحظ أن أهل الأندلس لا يفرقون بين ملبس الشتاء والصيف، فبدأ يعلمهم فنون (الموضة) وملابس الشتاء والصيف والربيع والخريف وتصميم الملابس المناسبة و تناسق الألوان والرشاقة وأنواع العطور المناسبة للرجال أو النساء، وفن التجميل والعناية بالبشرة. وهذا وإن كان البعض منه طيب ويرتضيه الشرع إلا أنه كان يهدف منه تعليم الناس الانسياق خلف كل ما هو جديد بغض النظر عن مخالفته للشرع أم لا.

– كما أن زرياب ادخل إلى الأندلس لعبة الشطرنج، وبدأ التغير في المجتمع تدريجيا من الكبراء والأمراء والأعيان والأغنياء، ومن ثم أتبعهم العوام وبخاصة فئة الشباب.

– ترتب هذا كله –وللأسف الشديد – أن تعلّق الناس بالغناء والتنعم والترف المذموم، وانتشرت حياة البذخ عند الكثير من الناس، وكثر المطربون والمغنّون في بلاد الأندلس، ومن ثم بعد ذلك انتشار الرقص والمجون وإن كان في البداية قليلا إلّا أنه بدأ في الانتشار سريعا حتى صار هذا مألوفا عند المجتمع فيما بعد، كما تعلّق الناس باللهو والمجون والدّعة وحب الدنيا وترك الجهاد. وبهذا كان زرياب، أحد أهم أسباب سقوط الأندلس ولو كان هذا على المدى البعيد، وذلك لنشر عادات كثيرة لا تتفق مع الشرع مما جعل المجتمع يألف حياة الدّعة والترف والبعد عن الخشونة وبخاصة عن الرجال مما كان سببا في إخراج جيل من الشباب لا يعرفون إلا اللهو والمجون، ففسد المجتمع، وانتهزت دول النصارى هذه الفرصة السانحة وجعلت تنقضّ على بلاد المسلمين في الأندلس وبدأت تحاربهم حربا بلا هوادة وتأخذ من المسلمين القلاع والحصون، وبدأت دولة المسلمين في الأندلس في الانحسار بدل ما كانت تفتح البلاد وتتوسع فيها، وما فتئت الدولة المسلمة تتفرق وتتقزم ويقلّ دورها، وصارت الدول المجاورة تطمع فيها وتتوسع على حسابها، ومن ثم حدث على المدى البعيد تم سقوط الأندلس بعد حوالي ثمانية قرون من الزمان.

وهنا يتبين لنا التربية الحسنة تُخرج لنا جيلا من الشباب يُنير الدنيا للناس، يكونون شموسا يعلمونهم أمور دينهم ودنياهم، وأقمارا يُضيئون

لهم حياتهم كما يريد الله منهم. ورأينا في الصفحات السابقة أن الذين كانوا سببا في هؤلاء العلماء الذين أناروا الدنيا للناس وشاع ذكرهم في العالمين، كانت خلفهم أمهاتهم..

تشبهوا إن لم تكونوا مثلهم *** إنَّ التشبهَ بالكرامِ فلاحُ

وفي الختام

هذه رسالة إلى كل الآباء وأُولياء الأمر منهم: إن لم نكن نحن سيف الدين قطز، أو صلاح الدين، أو عباس بن فرناس، أو ابن تيمية، أو الشافعي، أو ابن حجر العسقلاني أو هذه النماذج المشرقة المشرّفة.. فليكن أبنائنا بتربيتنا لهم كذلك، وسيكونون في ميزان حسناتنا نحن أولياء الأمور والمربّين.

ولا يَقُلْ أحد أننا لا نستطيع، أو يتعلل بقوله إننا مشغولون بما نحن فيه، أو أن هذا العصر غير العصور التي مضت..

أقول: إذا كان كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه؛ وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم (ما من مولودٍ إلّا يُولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه ويُنصرانه، ويُمجّسانه، كمت تُنتِجُ البهيمةُ بهيمةً جَمْعاءَ، هل تُحِسّون فيها من جَدعاءَ؟ ثم يقول أبو هريرة واقرؤوا إن شئتم: قول الله تعالى { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [سورة الروم الآية: 30].

فما بال تربية أبنائنا اليوم؟! نرى الكثير من أبنائنا اليوم – إلّا ما رحم ربي – على غير ما نريد من الصلاح الذي نطمح إليه في أنفسهم أو لمجتمعاتهم، هل نأمرهم بالصلاة عند سبع كما أمر الشرع؟! هل نُحَفِّظ أبناءَنا القرآن حتى يتعلموا كلّ ما يصلحهم في دينهم ودنياهم قال أحد السلف: «علم ابنك القرآن، والقرآن سيعلمه كل شيء»، أم أننا

ندعهم يتعلمون من الفنانين أو المغنّين الذين يُفسدون الأخلاق كما نرى، أم نتركهم يحفظون من الأغاني أهبطها وأخدشها للحياء، أو نترك أبناءنا ينشغلون بالكرتون ليل نهار فيؤثر حتى على مستواهم العقلي والفكري وقبل ذلك الأخلاقي والعقائدي، كلّ هذا ونحن منشغلون عنهم؟!..

لو استطلعنا أراء الكثيرين عن قدواتهم ومثلهم الأعلى، تُرَى ما قدوة أولادنا الآن؟ وبِمَنْ يتمثّلون ويتشبهون؟ ومَن يُريدون أن يكون هو مثلهم الأعلى؟! الإجابة نعرفها جميعا وهي كارثية إلّا ما رحم ربي وعصم.

إخواني وأخواتي إنها أعباء ضخمة ومسؤولية كبيرة في الدنيا والآخرة، ومما يُهوّن علينا هذه المسؤولية أن نتذكر قول النبي ﷺ: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته: الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته» رواه البخاري ومسلم.

فأنت مسئول عن بيتك وأولادك وأعمالك كلها حتى ما يصدر عنك من كلام قليل أو كثير، حسن أو قبيح، معنى ذلك أنك ستأخذ على هذا الكلام، وهذا الفعل، وستحاسب عليه أمام الله، هذه رعيتك التي استرعاك الله ستُسأل عنها في الدنيا قبل الآخرة، ومن ثمّ يحتاج الإنسان إلى أن يُعدّ لهذا السؤال جواباً، وأن يُحاسب نفسه قبل أن يُحاسَب، وليس الآباء فقط بل كل من لك عليه ولاية تذكر أنك ستقف بين يدي الله، ويسألك سبحانه عما استرعاك إياه حفظت أم ضيّعت.

روى الترمذي في سننه وصححه الألباني: (عن أنس عن النبيّ –صلى الله عليه وسلم– : (إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاه)، وفي رواية لابن حبان في صحيحه: عن الحسن أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (إن اللّه سائلٌ كلَّ راع عما استرعاه حفظَ أم ضيّع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته).

من خلال ما رأينا في الصفحات السابقة وجدنا الحقيقة الغائبة، ألا وهي (النساء مصانع الرجال..) إذا صلحت المرأة صلحت الأسرة وبالتالي صلح المجتمع كله، فالأشجار الطيبة تنبت الثمار الطيبة.

قال الخطاب بن المُعلّى المخزومي القرشي وهو يعظ ابنه: «يا بني.. إنَّ زوجة الرجل سكنه ولا عيش له مع خلافها .. فإذا هَممت بنكاح امرأةٍ فسل عَن أهلها فإنَّ العروق الطيبة تنبت الثمار الطيبة».

قال أبو العلاء المعري:

وَيَنشَأُ ناشِئُ الفِتيانِ مِنّا *** عَلى ما كانَ عَوَّدَهُ أَبوهُ
وَما دانَ الفَتى بِحِجىً ولكن *** يُعَلِّمُهُ التَدَيُّن أَقرَبوهُ

وها نحن قد مررنا سريعا فوجدنا أن الكثير من عظماء الإسلام يرجع الفضل في تربيتهم وتنشئتهم النشأة الصالحة كان لأمهاتهم أو أخواتهم، المحدّث البخاري ربته أمه.. الإمام أحمد بن حنبل ربته أمه.. الشافعي صاحب المذهب ربته أمه.. الحافظ بن حجر ربته أخته.. وشيخ الإسلام ابن تيمية كانت أمُّه تُسمَّى تيمية، وكانت واعظةً، فنُسِب إليها، وعُرِف بها.

أيتها الأمّهات؛ نظرا لعِظِم دورك في البيت والمجتمع، ولأهمية ما تقومين به تجاه المجتمع الذي تعيشين فيه من صلاح وإصلاح، لهذا يسعى أعداء الملة والمستغربين وأذنابهم يسعون بكل ما أوتوا من قوة لإفساد المرأة المسلمة، لماذا؟؟ لأنهن هن قواعد البيوت، وأساسُ عمادها، وهنّ مصابيح البيوت في ظلام الخبائث التي تهدم الأخلاق والقيم، وإذا أصاب القواعد أيّ خلل فسينهار البيت فوق ساكنيه، يا ليت نساء المسلمين يعون ذلك جيداً، وينتبهن لخطورة دورهن، وعلى الرجال معرفة هذا ومساعدة الأمهات في بناء أسرهم وتربية أبنائهم.

نعم إذا صلحت الأم صلح المجتمع... ومن ثم يسعى الغرب وأذنابهم من الليبراليون إلى إفساد المرأة فإنها لو فسدت وتركت مهمتها الأساسية وانشغلت عنها لوجدنا مجتمعا فاسدا.

وصدق شوقي في قوله:

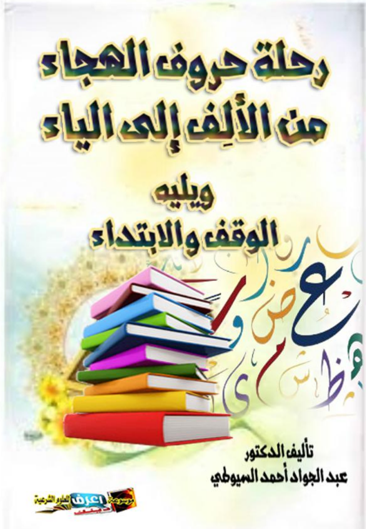
ليس اليتيمُ مَن انتهى أبواهُ مِن *** هَمِّ الحياةِ وخَلّفاهُ ذليلا
إنّ اليتيمَ هو الذي تلقَى لهُ *** أُمّاً تَخَلّتْ أو أباً مَشغولا

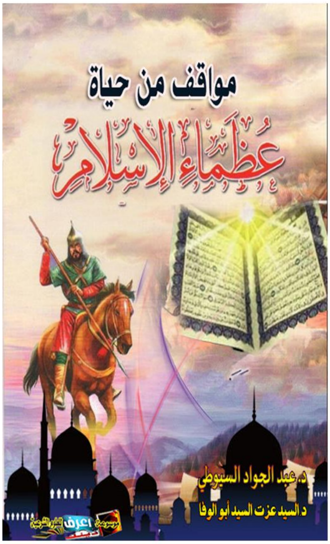
النساء مصنع الرجال فصلاح الأم صلاح للمجتمع لذا فطن أعداء الإسلام وأعداء الشعوب لدور الأم في بناء المجتمع، فأخذوا على عاتقهم إفسادها وعملوا بكل جهد وبكل طريقة على بلوغ هدفهم الخبيث لإبعادها عن دورها كأم ومربية. فكل أساس صحيح أو غير صحيح فهو ابتداء من الأم.

قال شوقي:

من لي بتربية النســـاء فإنهـــا
في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مـــدرســـة إذا أعـددتــهـــا
أعددت شعباً طيب الأعــراق
الأم روض إن تـعـهــده الحيـــا
بـــالــري أورق أيـمـــــاً إيـــراق
الأم أستـــاذ الأســـاتذة الأُلَـى
شغلت مآثرهم مدى الآفـــاق

من منشورات الموسوعة للمؤلف









مع تحيات

فهرس



مع تحيات

موسوعة اعرف دينك للعلوم الشرعية